أصوات من فلسطين الجديدة (٢): عودة الغائب

ملف من جزءيْن (قد يَتْبعهما ثالث)

إعداد وتقديم: عمر برغوثي

عمر برغوثي

«لماذا قتلوه؟» سألتني ناي ـ ابنتي التي لم يَبْلغ عُمرُها عددَ أصابع يدها الصغيرة ـ بعدما شاهدتْ على التلفاز، بل عاشَتْ ما وراء التلفاز، قتلَ محمّد الدرّة. شاهَدَتْه بفجيعةٍ لا تليق بعمرها وبراءتها، ولكنَّ الجريمة لم تكن لائقةً أيضًا بعُمر محمّد وبراءته. لم يكن بالإمكان أن أجيبها بكليشيه جاهز: فهي أذْكى من أن تَقْبله، وأنا أكثرُ حساسيَّةً من أن أكتفي به. لذلك أجبتُ: «لأنّهم لم يعودوا يفكّرون كبشر؛ فالكرةُ أصابهم بالجنون.» لم تقتنعْ، ولكنَّ دموعها الحبيسة في عينيها العسليَّتيْن الجميلتَيْن ألْهَتْها عن استجوابي. لماذا؟ بقي السؤال عالقًا في رأسي دون إجابة.

متى يتوقّف الإنسانُ عن كونه كذلك؟ أو بالأحرى متى تُهَيْمِن المكوِّناتُ الأخرى لهويَّة الإنسان على المكوِّن الأول والأهمّ: كونه إنسانًا؟ لا بدّ لنا أن نَعْكس السؤالَ على أنفسنا، قبل أن نَطْرحه بجديَّة على الآخر: ما عمقُ هذا العنصر الجوهريّ في تكوين هويَّتنا العربيَّة ـ الفلسطينيَّة؟ ألا نَسْمح لأنفسنا أحيانًا، أو أكثر قليلاً، أن نستمرئ كونَنا ضحيةً، فنبيحَ لأنفسنا تجميدَ إنسانيَّتنا لحينٍ من الزمن، أو ـ وهذا أخطر بكثير ـ نعيدَ تعريف إنسانيَّتنا لتبيحَ لنا إتقانَ دور الضحيَّة؟ هل يُسمح للمناضل أن يَقْتل طفلاً من «الأعداء،» أو أن يمارس دور المضطهِد (بكسر الهاء) في بيته؟ هل نؤجِّل صرخات المكوِّنات الأخرى لهويَّتنا حتى ينتهيَ صراعُنا مع الآخر؟ لِمَ نُناضل؟ من أجل ماذا؟ لجزائر جديدة، أم لكوستاريكا عربيَّةٍ حرَّةٍ أبيَّة؟ ماذا يَعْني العِلْمُ عندما تُنْتجه مصانعُ تلّ أبيب؟ ما هو الوطن الذي نَبْحث عنه بخيالنا ونُنتجه بفعلنا ومثابرتنا؟ ماذا يَعْني الوطنُ أصلاً إذا نَتَجَ عن تجسيدٍ لظلمٍ تاريخيّ وتاريخٍ غيرِ أخلاقيّ؟

هل في صور الوطن الموجودة في حلمنا متَّسعٌ لألوان عديدة: لإنسانٍ حرّ، لامرأةٍ تحقّق ذاتَها، لطفلةٍ تفكّر وتَكْتشف دون إملاء ودون قمع، لفنّانٍ يُبْدع دون رقابة خارجيَّة أو رقابةٍ ذاتيَّة، لفقيرٍ يحتجّ ويفكّر ويطالب، لسياسيٍّ يَرْفض أنْ يَنْضمّ إلى القطيع ـ وما أكثرَ القطعان في وطننا الرحب ـ، لجدلٍ، لحبٍّ، لاختلافٍ، لتحليقٍ، لنقدٍ، لتجديدٍ، لاستلهامٍ، لتواصلٍ،... لإنسانيَّة؟

في هذا الملفّ المزدوج نَبْحث عن الإجابات، أو نعيدُ طرحَ الأسئلة بشكلٍ مختلف. لا نتَّفق بالضرورة على شيء سوى حبِّنا للحريَّة والكرامةِ والإنسانيَّةِ، وإصرارنا على عودة الغائب/المغيَّب: عودةِ الحديث عن فلسطين ديموقراطيَّةٍ علمانيَّةٍ، بعد أن بَهتَ خطابُ «٣٤ عامًا من الاحتلال؛» عودةِ الحديث عن الإنسان فينا، الذي يَسْبق فلسطينيَّتَنا وعروبتَنا؛ عودةِ الحديث عن عودةِ اللاجئين لنفي ظلمٍ تاريخيٍّ تناسيناه لاعتبارات السياسة والإتيكيت؛ عودةِ الحديث عن دورنا في صياغة هويَّتنا الجديدة بدلاً من تقبُّلها من «أعلى» دونما حراك.

وما كان لكل هذه الأحاديث أن تُباح لولا مجالُ الحريَّة وحريَّةُ المجال اللذيْن أتاحتهما لنا مجلةُ الآداب.

رام الله

الجسد أداةً لإزالة الاستعمار

معين ربّاني

ترجمة: س. إ.

ثمة موتٌ مؤكّد، مختارٌ بتعمُّدٍ وتأنٍّ، كان ومايزال أداةً للصراع. فلمّا كان هذا السلاح لا يتطلّب إلاّ جسدًا إنسانيّاً فإنه من الطبيعي جدّاً أن يُستخدَم في نضالات الشعوب المستعمَرَة ضدّ القوى النوويّة. في فيتنام مثلاً لم يكونوا قلائلَ أولئك الرهبان البوذيُّون الذين أَحْرقوا أنفسَهم علنًا احتجاجًا على شراسة الديكتاتوريّة العسكريّة التي حَكَمَتِ الجنوبَ المحتلّ من بلادهم، واحتجاجًا ـ من ثمّ ـ على ملعّبها الأميركيّ الإباديّ. وهذه الأفعال ـ مثلها مثل كثيرٍ من الأفعال الأخرى التي قام بها الشعبُ الفيتناميّ الواسعُ الحيلة ـ خلّفتْ أثرًا عميقًا ودائمًا في الرأي العام الأميركيّ. وفي النهاية، بدأتْ قطاعاتٌ هامّةٌ من المجتمع الأميركيّ، وبحيويّة متزايدة، بحملةِ تعبئةٍ في مواجهة عدوان حكومتها المُفْلس ضد أمّة من الفلاّحين في الطرف الآخر من الكرة الأرضيّة. كما أنّ تلك الأفعال ـ على نحوٍ ما أعلنت القيادةُ الفيتناميةُ بثبات ـ أحدثتْ صدعًا أساسيّاً داخل المجتمع الأميركيّ نفسِه، ولولاه لما تحقّق على الأرجح ذلك النصرُ الأعذبُ في ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٧٥.

بعد مضيّ عقد من الزمن اتّخذ القتالُ الانتحاريّ شكلاً مختلفًا جدّاً. ففي لبنان وسيريلانكا على الأخصّ راح مناضلون محمّلون بالمتفجّرات يفجّرون أنفسَهم من أجل إلحاق أعظم الضرر بعدوٍّ صعبِ المراس. في حالة لبنان كانت العمليّات العسكريّة التي نفّذتْها المقاومةُ الإسلاميّةُ والوطنيّةُ فعّالةً إجمالاً، لسبب بسيط هو أنّ أولئك الذين خَطّطوا لها اتّبعوا القاعدةَ الأساسيّةَ المتمثّلة في ضرب العدو في مقتله، أيْ في طاقمه العسكريّ وبنْيته العسكريّة، موضعِ قوته واعتداده. وعلى النقيض منهم، سلَك «نمورُ التاميل» في سيريلانكا الدربَ الخاطئَ تمامًا. فباستثناء قتلِ بعض السياسيِّين البارزين انحصر «نجاحُ» النمور الأساسيّ في قتل أعداد كبيرة من المدنيين السينهاليين (والتاميل) ـ وَهُمْ من غير المقاتلين، ولا يَعْنون شيئًا للحكومة التي يحاربها التاميلُ، لا بل إنّ قتلَهم ـ كما صحّت التنبُّؤات ـ تمّ استغلالُه من طرف السلطات الحكوميّة لشنّ مذابح عنصريّة وإرجاعِ قضيةِ الحقوق التامیليّة إلى الوراء عقدًا من الزمن على الأقل.

لكنْ يبدو أنّ أسلوب ضرب العدوّ في غير مقتله، وإيذاءِ الذات في الدرجة الأولى، هو الأسلوبُ الذي يفضّله الفلسطينيُّون أيضًا. فباستثناءات قليلة (وأبرزُها في هذا المجال العمليّةُ التفجيريّةُ المزدوجة في بيت ليد عام ١٩٩٥ والتي أدّت إلى قتل بضع عشرات من الجنود) يَصْعب فهمُ المنطق من وراء مثلِ هذه العمليات. فكيف يُفترض أن يُسْهم القتلُ والتشويهُ العشوائيّان للمدنيِّين الإسرائيليِّين (وبينهم عرب) في تدعيم حق تقرير المصير للفلسطينيِّين، سؤالٌ ـ كما قد يكون متوقّعًا ـ لم يستطع المسؤولون عن تلك العمليّات أن يجيبوا عنه قطّ. فما جدوى أن يَفْقد الإسرائيليُّون إحساسَهم بالأمان إنْ تمّ ذلك بطريقةٍ تُقوّي تأييدَهم لأكثرِ عناصرِ مجتمعهم تطرفًا، بدلاً من أن يحدث ما حَدَثَ في حالتيْ فيتنام ولبنان: وهو تأليبُ أكثر قطاعات الرأي العامّ الإسرائيليّ تنوّرًا أو تعلُّقًا بالمصلحة الذاتيّة ضد تعصُّب حكومتهم؟ ليس على المرء أن يكون من معارضي استخدام العنف أو عبقريّاً في السياسة ليعي الرابطَ بين تلك العمليات وتطوُّرِ العلاقة المشؤومة التي نَمَتْ بين أجهزة أمن السلطة الفلسطينيّة والمخابراتِ الإسرائيليّة ووكالةِ المخابرات المركزيّة الأميركيّة (سي. آي. ايه). بالطبع هناك سياق محدّد لأعمال التفجير، وبالطبع هناك غضب فلسطينيٌّ لا يُمْكن ضبطُه، وهلمجرّاً. ولكنْ لو كانت الأمورُ بهذه البساطة لما كانت ثمّة حاجةٌ إلى «جبهات تحرّر وطنية» وإلى «أحزاب الله» أو إلى أيّ نوع آخر من القيادات السياسية المتطوِّرة (ومن ثمّ الناجحة).

لكنْ، في إشارة تَبْعث على أمل أكبر، وفي الوقت الذي كان فيه مناضلون فلسطينيون يحوّلون أنفسَهم موادَّ متفجرةً على الطريقة التقليديّة، كانت فلسطين تُبْدع أيضًا وسائلَ أخرى في استخدام

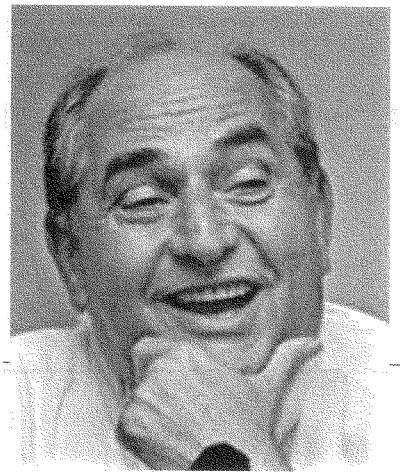

إنّ عشـرات الآلاف الذين جاءوا ليَدْفنوا فيصل الحسيني قد حرّروا القدسَ طوال القسم الأعظم من ذلك اليوم

الجسد أداةً لإزالة الاستعمار. وهذه الحالات تختصّ باستخدام الجسد بشكل لاإراديّ (تمّ، من دون شكّ، بالتراضي عقب الوفاة)، من أجل تحقيق أهداف وطنيّة سياسيّة ملموسة. الحالة الأولى، وهي حالةُ الناشط الأكاديميّ البارز إبراهيم أبو لُغُد، تتعلق بتطبيق حقّ العودة بعد موته في ٢٣ أيار (مايو) من هذا العام. فبعد يوميْن على الوفاة، عاد ابنُ يافا هذا، الذي عاش سنواتِه الأخيرةَ في رام الله وأصبح منذ عام ١٩٤٨ المنفيَّ الفلسطينيَّ الأولَ الذي يعود إلى مسقط رأسه من دون تأشيرة دخول، ليستقرّ ـ على طريقته الخاصة ـ هناك بشكلٍ دائم. وعلى الرغم من أنّ هذا هو بُعدٌ مركزيٌّ من أبعاد موت الدكتور إبراهيم ولم أكن أنا أوّلَ مَنْ لاحظه، فإنّ ما لَفَتَ نظري بوصفه أمرًا لا يقل رمزيّةً هو المأتم نفسُه. فموتُه، شأنه شأن ما كان يَحْدث في حياته غالبًا، جَمَعَ الناسَ بعضَهم إلى بعض من أجلِ سببٍ سياسيٍّ هادف. وفي هذه اللحظة اجتمعتْ تقريبًا كلُّ شذرة من شذرات الوطن المشتّت، لا في بيروت أو لندن، بل في قلب يافا: فجاء إدوارد سعيد وهشام شرابي من جالية المنفى؛ وراوية الشوّا من غزة؛ وفيصل الحسيني من القدس؛ ووفدٌ كبير من رام الله وبقيةِ الأماكن في الضفّة الغربيّة؛ وجميعُ النوّاب العرب في الكنيست الإسرائيليّ، مع استثناءٍ مريح هو صالح طريف وزملاؤه القوميُّون اليهود ذوو الأصل الفلسطينيّ. وقد كان أضخمُ وفد في موكب من حوالى ١٠٠٠ شخص مؤلّفًا من سكّان يافا نفسها. وبدا الأمرُ وكأنّ هؤلاء، برغم الظروف، قد انضمُّوا إلى المأتم لمجرد الإثارة التي تَغْمرهم بها المشاركةُ في حدثٍ عربيٍّ في مدينةٍ تزداد تهوّدًا. وكأنّ هذا التهوّد المتزايد يحتاج إلى إثبات، فجاءت لافتةٌ ضخمةٌ متاخمةٌ للمقبرة وفظيعةٌ في سوقيّتها لتُعْلِنَ أنّ «مركز بيريز للسلام» سيُبنى هناك وشيكًا. ولا شكّ أنّ بيريز وحاشيته سينتعشون من رؤية هذا المشهد حين يَدْخلون مكاتبَهم كلَّ صباح. وإذا كان حُكْمي المسبَّق عليهم ظالمًا، فإنني واثق بأنّ أولئك الفلسطينيّين الذين انخرطوا في أعمال «مركز بيريز» على امتداد السنوات الماضية بتفانٍ واقتناعٍ لن يوفّروا جهدًا في طمأنتهم.

شَهِدَ يومُ الجمعة التالية، على نحو مأساويّ، جنازَةَ واحد من الخطباء الذين كانوا قد تحدَّثوا في مأتم الدكتور إبراهيم، وهو فيصل الحسيني. إنّ موت رجلٍ متواضعٍ في فلسطين هذه الأيام خسارةٌ فادحة. فإذا كان مثلُ هذا الشخص، بالإضافة إلى تواضعه، قد كرّس حياتَه ـ بما لا يَقْبل الشكّ ـ لقضيّةٍ بدلاً من أن يكرّسها لذاته، فإنّ موته يغدو كارثةً حقيقيّةً.

وفي حين كان مأتمُ «أبو العبد» [فيصل الحسيني] فوضى بالتأكيد، فقد كان أبعدَ ما يكون عن الكارثة؛ ذلك أنّ عشرات الآلاف الذين جاءوا ليدفنوه، مكرِّمين بذلك مجسِّدَ «القدس العربيّة» أبلغَ تكريم، قد حرَّروا المدينةَ ـ بكلّ ما في الكلمة من معنى ـ طوال القسم الأعظم من ذلك اليوم.

انضممتُ إلى الموكب في رام الله، بصحبة صديقي عمر برغوثي وزوجتِه «صفاء.» حين جلسنا في سيارتي الفولكسفاغن الغولف كنّا أوّلَ الأمر كئيبين. فقد كان الحاجزُ الإسرائيليُّ على المدخل الجنوبيّ لرام الله مدجَّجًا بالجنود، وكان معظمُ المعزّين يُجْبَرون على الرجوع أدراجَهم دونما تمييز ـ الأمر الذي أَذْهل الإيطاليةَ لويزا مورغنتيني عضوَ البرلمان الأوروبيّ، التي بَدَتْ أنها الشخصُ الوحيد الذي امتلَكَ شجاعةَ أن يُخْبرَ الجنودَ في وجوههم رأيَها في تصرُّفاتهم (بدلاً من أن تَلْعن في سرها آلهتَهم وأمّهاتِهم كما كنّا نفعل كلُّنا).

وما لبثت الأمورُ أن تسارعتْ في التبدّل. فقد كان هناك جنود على طريق رام الله ـ القدس يفوقون ما شاهدناه من جنود طوال حياتنا. ولكنْ بدا أنّ تقييد حرية الفلسطينيّين كان آخرَ أولويّاتهم، إلى درجةِ أننا حين بلغنا ذلك الجزءَ من الطريق الذي يمرّ بمخيم قلنديا للاجئين (ويقع ضمن حدود بلديّة القدس) قام «الشباب ـ»

الجسد أداةً لإزالة الاستعمار

لأول مرة منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ـ باستعراض أسلحتهم علنًا وأَطْلقوا مئات العيارات الناريّة في الهواء على شرف «أبو العبد.» ومع ذلك رفض الجَنودُ الإسرائيليون الردَّ، وكأنّ ما يفعله الشبابُ هو أكثر الأمور عاديّة وتفاهة.

مع وصولنا إلى حاجز «الرام،» حيث كانت آلافٌ مؤلّفة من الفلسطينيّين ينتظرون التابوتَ والموكب، اتّضح تمامًا هدفُ الانتشار العسكريّ الإسرائيليّ الضخم. فهذه المرة كان على حركة اليهود [لا الفلسطينيّين] أن تقيَّدَ من أجل حَقْنِ حمَّام الدم الذي كان سيَحْدث لا محالة. وبدلاً من إيقاف الفلسطينيين عند الأضواءِ الخضر كما هي العادة، لكي يستطيع المستوطنون أن يعْبروا التقاطعاتِ المناسبةَ، كان الجنودُ الإسرائيليون الآن يَطْلبون الانتظارَ ـ ولساعات عدة أحيانًا ـ من تجمُّعاتٍ كان واضحًا ازديادُ إحباطها: تجمّعاتٍ هي خليطٌ من اليهود الأميركيين العديمي التكيُّف والمعتلّين اجتماعيّاً، ومنْ أتباع عصاباتهم الفرنسيين. وكانت «صفاء» ـ وهي من مواليد عكّا، وتتعرّض أكثرَ مني ومن عمر لغرور القوة الإسرائيلية ـ تبدو سعيدةً بهذا المشهد قلبًا وروحًا، بل كانت حقّاً كذلك. وكنتُ لأشعرَ مثلها، سوى أنني كنتُ منشغلاً في الحفاظ على سيارتي سالمةً وعلى راكبيها سالمين؛ فـ «الشباب» كانوا قد انتزعوا من الشرطة الإسرائيليّة المسافاتِ الأخيرةَ من طريق رام الله ـ القدس («وهي أهم طريق سياسية في الشرق الأوسط» على ما واصل عمر ترداد هذه العبارة وكأنّ عليه أن يُقْنِعَ نفسَه بتصديق ما يراه)، وراحوا يُرْشدون السيّارات في كلّ اتجاه ممكن لكي يُثْبتوا أنهم هم حقّاً مَنْ في يده زمامُ الأمور. ولمّا كان قد تحتّم أن يكون كلُّ شابّ في مجتمعنا زعيمًا، فقد تضاربتْ آراؤهم حول الاتجاه الذي ينبغي على كلّ سيّارة أن تسلكه. «يسار، يا غولف!،» «يمين يا غولف!» غير أننا، بعد عدة محاولات مهذّبة مطيعة، قرّرنا أنا وركّابَ السيّارة أنّ متطلبات اللحظة تَقْضي بأن نُعْطي الأولويّةَ لاتجاهاتٍ قادَتْنا في طرقٍ مخصّصةٍ في العادة للسيّارات القادمة من الاتجاه المعاكس.

تطلّب وصولُنا إلى القدس أربعَ ساعات. في العادة تستغرق الرحلة بالسيارة عشرين دقيقة، ولكنها أصبحتْ مؤخّرًا تستغرق ساعةً ونصفَ الساعة على الأقلّ بسبب الحصار الإسرائيليّ المشدّد. غير أنّ التأخير هذه المرة لم يكن فرصةً للتعبير عن الإحباط، بل عن رضًى شخصيّ وجماعيّ ووطنيّ عارم. وهذا الشعور ساد حتى قبل أن يتحول شارعُ صلاح الدين بحرًا من الأعلام الفلسطينية والأعلام العربية الأخرى؛ وقبل أن تُنزع الأعلامُ الإسرائيلية عن مركز قيادة المحكمة العسكريّة فتُحرَقَ وتُستبدلَ بأعلام فلسطينيّة؛ وقبل أن يمزّق العلمُ الشنيعُ المتدلّي من «بيت شارون» في القدس القديمة. وبالطبع حظي أبو العبد بمراسم دفنٍ وطنيّةٍ ملائمة في الحرم الشريف، شأنه في ذلك شأن د. إبراهيم. بالرغم من كلّ ما تمثّله إسرائيل فقد اختُزلتْ هذه الدولةُ إلى متفرّجٍ عاجزٍ في المدينة التي تَزْعم أنها عاصمةٌ أبديّةٌ لها.

في أسبوع كان قد قُتل خلاله أربعةُ مستوطنين في حرب استنزافٍ حدَّت أساليبُها وأنساقُها بشدةٍ من قدرة إسرائيل على الردّ وأَشْعرتها بالعجز المتزايد، بدا الإنجازُ السياسيُّ النابعُ من جنازتيْ إبراهيم أبو لغد وفيصل الحسيني – بالرغم من المآسي الحقيقيّة – مؤشّرًا إلى مرحلةٍ جديدةٍ واعدةٍ من مراحل الانتفاضة الفلسطينيّة الحاليّة ضد الاحتلال الإسرائيليّ. ومع ذلك، وفي غضون ساعات على انتصار جثمان «أبو العبد» انتصارًا بيّنًا على الاستعمار، انفَجَرَ جسدٌ حيٌّ عند مَدْخلِ مَرْقصٍ قرب يافا يرتاده المراهقون والمراهقات الروس. وها نحن الآن نجد أنفسَنا في وضع غريبٍ عجيبٍ لا يمكن استيعابُه، نتوسّل فيه إلى الأوروبيّين أن يُجْبِروا الإسرائيليّين على تطبيق خطةٍ أعدّتْها وكالةُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة (سي. آي. ايه.). ألاَ فَارقدْ بسلامٍ يا هوتشي منْ.

معين ربّاني

مدير المركز الفلسطينيّ للأبحاث في رام الله.

هوامش من العالم السفليّ

إيليا سليمان

ترجمة: س. إ.

المسافة، أفي المكان كانت أم في الزمان، شرطٌ مسبَّقٌ لصيانة سلامة اللُّغة. والتأمُّل في المباشِر يَعْني فقدانَ تلك المسافة الفاصلة. هذه المسافة هي ما أدعوه «الموقعَ الشعريّ.» إنَّه حين تُعلِنُ اللُّغةُ عن ذاتها لتصير هي الحدثَ أو المضمونَ.

لستُ صحافيّاً، ولا أَطْمح إلى أن أكون كذلك. ولكنَّك حين سألْتَني إنْ كنتُ على استعداد لأن أكتب شيئًا عمَّا يَحْدث من حولي، شَعَرْتُ بالدغدغةِ والإغواءِ والإغراء. ذلك لأنَّني كنتُ أحتاج إلى أن أتكلَّم.

أَشْعر أنَّني وقعتُ في الفخّ.

وهذا كلُّه ناهيكَ عن التزامي تجاهَكَ، وهو التزامٌ لا أستطيع الوفاءَ به. فأنت تَعْلم، وذلك هو سببُ طلبك مني أن أَكْتب، أنَّني أُعِدّ العُدَّةَ لتصوير فيلمي القادم، وأنا الآن في المرحلة التي تَسْبق الإنتاج. الوقتُ ليس إلى جانبي. أَسْتيقظ يوميّاً الساعةَ السادسةَ صباحًا. فأكون بمعيَّة مدير التصوير، ونُكِبُّ على تقطيع المشاهد السينمائيَّة découpage، وهذه هي أهمُّ المراحل التي تَسْبق الإنتاجَ وأكثرُها حَسْمًا. يومًا بعد يوم نستيقظ أَبْكرَ فأَبْكر، لأنَّنا نَعْجز عن الالتزام ببرنامجنا المقرَّر. فيكون علينا أن نتوقَّف أثناء النهار، ولساعاتٍ في أغلب الأحيان، بسبب انهيار الوضع.

إنَّني أعيش، أو أعاني، سندروم [متلازمَةَ] فرانسيس فورد كوپولا، سوى أنَّها تأتي قبل التصوير إنْ كان ثَمَّة تصويرٌ. أؤدِّي من جديدٍ «حالَ الأشياء»[1] لا بسبب المُنْتِج الذي كان ومايزال في واقع الأمر يُشجِّعني، بل لأنَّ الجيشَ الإسرائيليّ قرَّر أن يَحْتلّ أماكنَ تصوير الفيلم ليَصْنَعَ في ديكورنا إعلانًا لفيلم رعبٍ جديد. لقد قرَّر الجيش أن يَصْنع فيلمًا عن فيلمنا الذي لم يُصْنَع بعد.

صرتُ أؤْمن، عبر طريقتي الأنانيَّة الخاصة، بأنَّني نبيّ، ولكنَّني نبيٌّ مُخْفِق. ويعود هذا، من جديد، إلى إساءة تقديرٍ في الوقت. فلقد بدأ الأمرُ كلُّه على النحو التالي: قبل بضعة أسابيع، أو للدِّقَّة قبل أن تبدأ الأحداثُ الأخيرة، عَقدتُ اجتماعًا مع رئيس شرطة منطقة بيت لحم. أخبرتُه بما نحتاجُ إليه، وهو أن يَسدُّوا الشارعَ الثاني الرئيسيّ في بيت لحم حيث سنُعيد خلقَ حاجز «الرام» الإسرائيليّ الذي يَفْصل القدسَ عن رام اللّه، وهناك ستجري ثلثُ أحداث الفيلم. كان جوابُ رئيس الشرطة إيجابيّاً جدّاً، وباركني. ولكنَّني سألْتُه من بعدُ، ماذا لو ـ فَرَضًا ـ كنّا نصوِّر فيلمَنا أمام الحاجز المختلق الذي سنبنيه فَحَدَثَ شيءٌ ما على الحاجز الحقيقيّ عند مدخل بيت لحم؟ علاوةً على ذلك، ماذا سيَحْدث إنْ أفاق سكّانُ بيت لحم ذاتَ صباح وخَرَجوا إلى شرفاتهم، الكائنةِ هناك في أعالي التلال، ليتمطَّوا استعدادًا ليوم جديد، فَنَظَروا إلى أسفل التلّة ليكتشفوا حاجزًا في قلب مدينتهم المحرَّرة؟ سيظنُّون أنَّ الإسرائيليِّين قد عادوا. «لا تَقْلقْ،» قال رئيسُ الشرطة لي، «فقط ضَعْ إعلانًا في التلفزيون المحليّ يُعْلِم أبناءَ المدينة بما تفعله. أمّا بخصوص احتمال المواجهة عند الحاجز الحقيقيّ فلا تقلقْ أيضًا. فهو على بُعْدِ ميلٍ عن الحاجز المختلق، ولن يبدو في التصوير أو يؤثِّرَ فيه.»

بعد لقائي رئيسَ الشرطة، تناولتُ طعام الغداء مع الملحق الثقافيّ الفرنسيّ في فندق انتركونتيننتال في بيت لحم. وصادف أنَّ الفندق يقع عند مدخل المدينة، غيرَ بعيدٍ عن الحاجز الحقيقيّ. أثناء الغداء مع المُلْحق ومديرِ التصوير وبضعةِ أصدقاء، ما تُرانا كنّا نناقش غيرَ أمور السينما الفلسطينيَّة؟ كانت ثمَّة أصواتٌ مألوفةٌ تأتي من الخارج، من مسافةٍ بعيدةٍ أولَ الأمر، ولكنَّها راحت تَقْترب

١ ـ L'Etat des choses: فيلم لڤيم ڤاندرز. (م)

هوامش من العالم السفليّ

رويْدًا رويْدًا. أرى مديرَ الفندق يَذرع ساحةَ الفندق جيئةً وذهابًا. أرى النَّادلَ والبوَّابَ غيرَ مشغولَيْن بجلب الشراب أو حملِ حقائب نزلاءِ الفندق، بل بإغلاق مصاريع النوافذ وسدِّ المنافذ التي قد يتسرَّب منها الرصاصُ أو قنابلُ الغاز المسيِّلةُ للدموع. وأخيرًا طُلِبَ منا أن نُخلي الساحةَ وأن نَدْخل غرفة عشاء آمنة. ثمَّة سيارةُ إسعاف أسمعها تتوقَّف خارج الفندق. طلقاتٌ بنادق. أتجرّأ وأَنْظر من النافذة. مدير الفندق يشير إليّ بأن أَنْظر إلى بناية في الجهة المقابلة، يتمركز فيها قنَّاصةٌ إسرائيليُّون. صديقتي التي تَجْلس بقربي فلسطينيَّةٌ عائدة، وتتوقَّع أن تَضَعَ مولودَها خلال أسابيع. كان حُلمُها أن تَلِدَ في بيت لحم، علامةً على عودتها إلى وطنها. لكنَّ قنابل الغاز الإسرائيليَّة المسيِّلة للدموع ليست «كاشِرًا» [حلالاً يهوديّاً] للحوامل، فتدبَّرتْ بعد قليلٍ الهروبَ من الفندق إلى عمق بيت لحم. وصلتْ سيّاراتُ «جيپ» الشرطة الفلسطينيَّة إلى الفندق وأَخْرجت الملحقَ الثقافيَّ منه ورافقتْه إلى ملجإٍ أكثر أمانًا. لكنَّنا، أنا ومديرَ التصوير، عَلِقْنا حيث نحن أربعَ ساعاتٍ إضافيَّة. وأخيرًا هدأ الوضعُ. فاقترحتُ على مدير التصوير أن نتوجَّه إلى الحاجز المختَلَق لنرى إنْ كان قد تأثَّر بما كان يَحْدث عند الحاجز الحقيقيّ، وإنْ كان ممكنًا العملُ في حال استمرار الوضع على حاله. الحاجز المختَلَق لم يَصِرْ خشبةً لمسرحٍ بعدُ؛ فالديكور مازال في خيالنا. ما نَمْلكه كمخطَّط إجماليّ هو رسمٌ تخطيطيّ فقط. وما نراه الآن بأعيننا إنَّما هو طريقٌ تافهٌ ذو منعطف. حين يُخْفِقُ خيالُنا في موضعة الحدث كنّا نعود ببساطةٍ إلى الرسم التخطيطيّ لنعزِّز خيالَنا. ولكنْ، عند هذه النقطة، وفيما نحن جالسون في سيّارتنا نحاول أن نتخيَّل المشهدَ، نتلقَّى فجأةً مساعدةً من الحاجز الحقيقيّ. كلّ بضع دقائق تمرّ بسرعةٍ سيارةُ إسعاف أو سيارتان. نرى سحابةً ضخمةً من الدخان الأسود ترتفع في القُرب. وأخيرًا، وعلى جناح الريح، غازٌ مسيِّلٌ للدموع. لم نعد نرى، فتخيَّلْنا.

الدموعُ في عيوننا؛ لم نَعُدْ نستطيع أن نَنْظر في محدِّد الرؤية. Eyes Wide Shut [لستانلي كوبريك].

آڤي، المدير التنفيذيّ للفيلم، هو واحدٌ من أكثر الأشخاص الذين التقيتُهم في حياتي عذوبةً وإخلاصًا. ولكنَّ آڤي إسرائيليّ. آڤي يَشْعر ـ لأسبابٍ واضحة ـ براحةٍ أكبر حين يكون في الناصرة لا في الضفَّة الغربيَّة. ففي الناصرة يَشْعر آڤي بحرجٍ أقلّ. في الناصرة يستطيع آڤي أن يتحدَّث العِبْريَّة، فيجيبه الناسُ في الناصرة بالعِبْريَّة أيضًا. ذاتَ يوم يصل إلى الناصرة بصحبة بعض الإسرائيليِّين الذين وظَّفهم ليعملوا على الفيلم. أَطْلب من آڤي ألاَّ يتحدَّث بالعبريَّة في الناصرة، فيُذْهله طلبي. أَشْرح لآڤي ضرورةَ ألاَّ يسلِّم بما يَظْهر من الناصرة. «إنَّها تبدو هادئة،» قلتُ، «ولكنْ، صدِّقْني، إنَّه الهدوء الذي يَسْبق العاصفة. الناس هنا يَكْرهون إسرائيلَ لما تمثِّله، وذلك لأسبابٍ عدّة، وكلُّها وجيهة. الأوضاع هنا قد تسوء بين ليلة وضحاها. ولستَ مرحَّبًا بك في الناصرة، حتى لو قيل لك عكسُ ذلك.»

هناك فلسطينيُّون وفرنسيُّون وإسرائيليُّون يَعْملون على الفيلم. أُعلن أمامهم أنَّ اللُّغة الرسميَّة أثناء العمل هي الإنكليزيَّة. يُسمح للفلسطينيِّين بالتحدُّث في ما بينهم بالعربيَّة. أمَّا اليهود فلا يُسمح لهم بالتحدُّث بالعبريَّة (ولستُ غيرَ مُنصِف في هذا، ولكنَّ شرح موقفي قد يَسْتغرق وقتًا طويلاً هنا). «آڤي،» قلت، «يومًا ما سيَنْفجر الوضعُ بشكلٍ لم يسبقْ له مثيل، وسترى أيّ عنف سيتجاوز هنا ما سيكون عليه الوضعُ في الضفَّة الغربيَّة. إنَّ ٥٢ عامًا من ارتكاب ما أنت تَعْلمه بحقّ الفلسطينيِّين في إسرائيل ليس لا شيء.»

ذلك الـ «يومًا ما» في نبوءتي جاء بعد أيام قليلة: إغلاقات، وحواجز، وإطلاق نار.

آخذُ صديقتي «ر» ونتوجَّه إلى رام اللّه. نصل إلى حاجز إسرائيليّ عند طرف المدينة. «ممنوع الدخول،» قال الجنديّ، «إنَّهم يُطْلقون

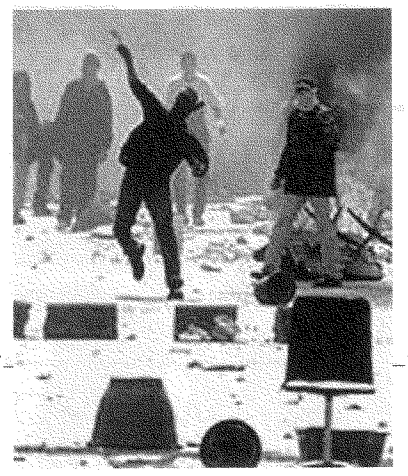

بعد ٥٢ عامًا فَهِم الإسرائيليُّون أنَّ من يسمّونهم «عربَ إسرائيل» قد مُسِخوا فلسطينيِّين

النارَ في الداخل. استديرا فقط، وارحلا.» ولكنَّ «ر» شخص استفزازيّ، وتمتلك الجرعةَ الملائمةَ من الاحتقار للجنود. إنَّها لا تصدِّقهم. «أنا لا أسمع أيَّ رصاص،» تقول «ر» لهم. ولكنَّ الجنديّ يقول متوعِّدًا: «غادرا فقط وفورًا.» غير أنَّنا نَجْمد في مكاننا، ولا نتزحزح؛ فنحن نشعر أنَّ من حقِّنا أن نرى ما حدث لأصدقائنا في رام اللَّه. الجنديّ يمشي جيئةً وذهابًا. إنَّه يتوتَّر. يبدأ برفع سلاحه قليلاً في اتِّجاهنا، مُلمِّحًا إلى ما يُمْكن أن يَحْدث إنْ لم نتحرَّك. أُدرك أنَّ علينا أن نستدير ونرحل. ما يتَّضح لي حقّاً هو أنَّه لم يَعُد في مقدوري أن أختبئ خلف هويَّتي الإسرائيليَّة التي أَمَّنت لي قبل وقتٍ قصيرٍ حمايةً جزئيَّةً. وأَقْصد بـ «جزئيَّة» أنَّني كنتُ محميّاً جزئيّاً من الرصاصات العفويَّة والضربِ الفوريّ. أُدْرك أنَّه إذا قرَّر الجنديُّ أن يَطْلب مني بطاقتي، فاكتَشَفَ أنَّني من الناصرة، فإنَّني سأكون عُرضةً لمفاجآتٍ ما. والسبب في ذلك أنَّ الإسرائيليِّين، في الأيام القليلة الأخيرة، وبعد ٥٢ سنة، فَهِمُوا ـ وإنْ على غير اقتناع ـ أنَّ مَنْ يسمُّونهم «عربَ إسرائيل» قد مُسِخُوا فلسطينيِّين. وهذا يعني للجنديّ عند الحاجز أنَّني الآن من الناصرة، سواء أكنتُ أحمل بطاقةً إسرائيليَّةً أم لا، وأنَّني مِنْ ثَمَّ كاشِرٌ [حلالٌ] للقتل. أخيرًا، أو مرَّةً ثانيةً، أوْ عودًا على بدء، صِرْنا مساوين للفلسطينيِّين، بل في الأيام القليلة الأخيرة كنّا غالبًا ما نُسْلَبُ إنسانيَّتنا بدرجة أكبر من إخواننا في الضفَّة الغربيَّة أنفسِهم. فها نحن، «عربَ إسرائيل،» «عَربَهم هم،» ارتديْنا الكوفيَّاتِ ورمَيْنا الحجارةَ عليهم. طوال ٥٢ عامًا والإسرائيليُّون يضعون رؤوسَهم في الرمال ويَكْتمون أنفاسَهم. والآن، حسنًا، صار بمقدورهم أن يَتَنفَّسوا، ولكنَّ الهواء ليس نقيّاً جداً:. فهناك أشخاصٌ يُحرْقون الدواليبَ في الناصرة، ويُحْرقون الأعلامَ الإسرائيليَّةَ والمخازنَ الكُبْرى؛ إنَّهم الغاضبون غضبًا مزدوجًا: غاضبون لكونهم عبيدًا حُصِروا في غيتوات، وغاضبون لأنَّهم فلسطينيُّون ازدادت فَلَسْطَنَتُهُمْ.

دخانٌ أسود يتصاعد من قمم التلال. السكّان الأصليُّون مصطفُّون على قمم التلال، ولكنَّ الشيء الوحيد الذي يَفْهمه الإسرائيليُّون من ظهورنا هناك هو أنَّنا نتهيّأ لسلخ فرواتِ بعضِ الرؤوس.

أنا في القدس. على أحدٍ ما أن يأخذ أمي إلى المستشفى في الناصرة. أمِّي تعاني السكّريّ والتهابًا حادّاً في الساق. لا أطبّاء متوفِّرون لأنَّهم مشغولون بالاعتناء بالجرحى. المركز الطبيّ في الناصرة أَغْلق أبوابَه. ابنة أختي تحاول أن تَبْلغ بيتَ أمِّي، ولكنَّها تَفْشل في عبور خطّ النار. الالتهاب في ساق أمي بَلَغَ العَظْم. أنتَ تَعْلم أنَّني أحبّ أمي. إذا تعذَّبتْ أمي وماتت بسبب الرصاص الإسرائيليّ فإنَّني لا أَعْلم كيف سأتعامل مع فكرة التسامح. لم أُخلَقْ لأَقْتُلَ، ولكنَّني سأفعلُ ذلك من أجل أمِّي إنْ لم تصل إلى المستشفى.

لا أستطيع أن أصِل إلى حبيبتي. إنَّها تعيش في الضفَّة الغربيَّة. أُتلفن. أَسْمع إطلاقَ النار على الطرف الآخر من التلفون. «أَطْفئي الأنوار،» أقول لها. «أَطفئي التلفزيون» الذي يَنْقل صورَ إطلاق النار الذي أَسْمعه على الهاتف. أتابع: «إنَّ إطفاء التلفزيون لن يُسْكت البنادقَ في الخارج، ولكنَّه على الأقلّ سيبقِّيها على نظام مونو [أحاديّ] لا على نظام دولبي ساراوند.»

لا أستطيع أن أرى حبيبتي. لا أستطيع أن أرى أمِّي. لا أستطيع أن أَستند إلى كَتِفِ أيٍّ منهما، ولا أستطيع أن أتناوبَ بين صدريْهما. لا أستطيع أن أعوِّض الواحدةَ من الأخرى. لا أستطيع أن أكون من دون أيٍّ منهما. على أحدٍ ما أن يكون مسؤولاً إزاء هذه المسألة: أهو فرويْد أم الجيش الإسرائيليّ؟!

إيليا سليمان

سينمائيّ فلسطينيّ. من أفلامه: «تكريم قاتل» و«سِجلّ اختفاء.» نال عدّة جوائز عربيَّة وعالميَّة. وهذا النصّ صَدَرَ أصلاً في مجلة **Cahiers du Cinema** الفرنسيَّة، عدد تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، وأَرْسله المؤلِّف إلى الآداب.

العودُ والحاجزُ وهاجسُ البُزُق

خالد جبران

ضاحية البريد،[1] ظهرًا. أحدُ سبوت العام الأول للألفيّة. عام الانتفاضة الثانية أو عساها الثالثة أو الأولى، لا أدري. سيل السيارات من حولي آخذٌ بالتباطؤ. وهذا يعني أنّ تماسّاً ما حاصلٌ، وأنّ رام الله تزداد ابتعادًا، وأنّ دَرْسَ البزق المحدَّد لرامي[2] بعد ساعة غدا حلمًا أو أمنيةً متقلقلةً على كفّ عفريت. لله ما أبعدَ البلدةَ الواقعة على مسافة عشرين كيلومترًا من بيتك، حتى لو امتطيتَ إليها أحدثَ ما أبْدع الألمانُ من سيّارات واستويتَ على ظهرها ثم تذكّرتَ نعمة ربّك وقلتَ ﴿سبحانَ الّذي سَخَّرَ لنا هذا وما كنّا له مُقْرِنينَ﴾.[3] لحظاتٌ وتنكشف حقيقةُ هذا التماسّ. وكالعادة فإنّ سيارة الجيش الإسرائيليّ تَمْنع باقي الخلائق من السير في الاتجاهين لغايةٍ لا يعلمها إلا اللهُ والجيشُ.

ألْتمس لي ولسيارتي مكانًا بين عشرات السيّارات الحائرة. أشتم الجنودَ والظروفَ والأوضاعَ في سرّي وجهري، وأعاود الاستسلامَ لأنغام الطنبور يتنفّس بخبثٍ من الكاسيت.

لله درُّكَ يا جميل الطنبوري،[4] من أين أتتكَ ألحانُ «سماعي شدّ عربان»[5] يا ابنَ الكلب؟[6] أهي همسٌ من إنسٍ أم من جانٍ؟ أتكون من «هاذر»؟[7] ألا تُحْبطكَ الانتفاضةُ؟ تُجفِّفكَ؟ ألا يَمْنعك الحاجزُ؟ يَقْهرك؟ أقادرٌ غيرُك على تلحين مثل هذا السماعي؟ أنا مثلاً؟ لا أظن! هاذر لا تَعْرفني. ثم إنّ هذه الحواجز تنأى برام الله القريبة وتَقْطع التواصلَ بين الإنس، فكيف بالجان؟ ﴿فبأي آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبانِ﴾[8] يُعْجبني غموضُ لحن جميل الطنبوري: فهو يُنبئكَ بالكارثة بعبارةٍ حانقةٍ وأنيقة، مرهفةٍ وعميقة، بعيدًا عن البساطة المصطنعة، وليس لحنُه بالسهل الممتنع. تُرى، أَأَنْبَأَه طنبورُه بالكارثة الوشيكة عام ١٩١٧؟[9] أَأَنْبَأَه بموته المبكر وبإخراج ألحانه واسمه عن قوانين الطوارئ المستحدَثة في تركيا الفتاة؟ رُبَّما.. ومِنْ أين هذه المقدرة على التنبؤ التي تميِّز الآلات ذاتَ الأوتار المعدنيّة مثلَ البزق والطنابير، خلافًا للعود والقانون وذواتِ الأوتار غيرِ المعدنيّة؟

أنا أحبّ العودَ وأطمئنّ إليه؛ ففيه يُعشِّشُ صوتُ والدي ورائحةُ تبغه وعَرَقِه. كان عزفُه للعود أوّلَ صوتٍ أَلِفَتْهُ أُذني. والعودُ يَحْملُ إليّ دفءَ الأب، وعن بُعدٍ، لكنّه بحكمته ووَقاره الأپولونيّيْن[10] يعصى الاستسلامَ للهواجس: فهو يتنبّأ بأثرٍ

١ ـ حيّ سكنيّ على الطريق بين القدس ورام الله. وهو مُعرَّف بأنّه داخل منطقة «ب،» أيْ أنه خاضعٌ للسيطرة الأمنيّة الإسرائيليّة.

٢ ـ كُنيةٌ شاملةٌ لطلاّب الكاتب في رام الله.

٣ ـ سورة الزُّخْرف.

٤ ـ مُلحِّنٌ وعازفُ طنبور تركيّ شهير، توفّي عام ١٩١٧.

٥ ـ سماعي: قالب موسيقيّ تركيّ. شدّ عربان: المقام الذي لُحِّنَ به هذا السماعيّ.

٦ ـ للتحبُّب، من شدّة الإعجاب.

٧ ـ قرينة (شيطانة) النابغةِ الذبيانيّ.

٨ ـ سورة الرحمن.

٩ ـ حاول أتاتورك تحويلَ تركيا دولةً أوروبيّةً، فحارب جميعَ العوامل الشرقيّة والعربيّة والإسلاميّة إلى درجةِ سَنِّ قوانين تَمْنع تداولَ الموسيقى الشرقيّة ـ بما في ذلك أعمالُ جميل الطنبوري وآخرين.

١٠ ـ نسبةً إلى الإله الإغريقيّ أپولو.

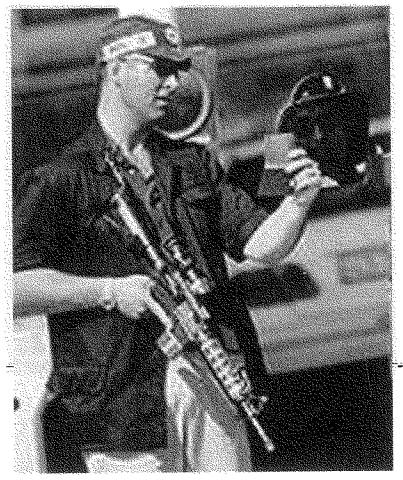

تقف ساعةً أو أكثر لتتحرك عشرةَ أمتارٍ أو أقلّ، حسب مزاج الجنود وسبحانيّتهم

رجعيّ فقط، ولا رغبةَ له بالشقاوة والزعرنة. أما البُزُق فَحَدِّثْ ولا حَرَجَ: إنّه ديونيسيٌّ طبعًا وتطبّعًا، ولا تجد أكثرَ منه نهمًا وشهوانيّةً، ولا أشدَّ رغبةً في تسلُّق جدران الوقت والوضع، ولا أكثرَ تناغمًا حالَ توجُّسِه أمرًا جللاً. في المغرب العربيّ قبل الانتفاضة بشهر كان تجاوبُهُ مع التشيللو فظيعًا في توضيبٍ لِلَحْن «وَيْنُنْ؟ وَيْن صوانُنْ وَيْن وجُوهُنْ وينُنْ؟ صار في وادي بيني وبينُنْ آه.. وَيْنُنْ؟» لدرجةِ أني شعرتُ بعواطفي تَخْنق حنجرتي أثناء العزف. لا أدري كيف تَوَجَّسَ البُزُقُ يومَها، ولا كيف نجح في استحضار ذلك الجو المأساويّ على ليلِ طَنْجَةَ الهادئ والغارقِ في السكون الأندلسيّ. حتى زميلي استغرب مني إصرارَ البزق على توجس الشرّ:

«دعك من هذه 'الفلسطينيات' يا رجل! ما لَكَ ولِـ 'وَيْنُنْ؟' وادي بينك وبين مَنْ يا رجل؟ تعال نشرب البيرة.. أنظرْ، أنظرْ هذه الحسناء المغربيّة. لا تتشاءم. لحاكَ اللهُ ما أنكَدَك! ثم ما سبب إصرارك على أداء 'شوارع القدس العتيقة' في المهرجان السابق غداةَ فشل كامب ديڤيد الأخير؟ ولماذا اتّخذتَ من عرض 'مزامير' سلاحًا لمهاجمة كلينتون وحريمِه ومَنْ لَفَّ لفَّهم؟ ها؟ لا تقل لي إنّك ستحارب أمريكا وإسرائيل بالبُزُق. ثم.. ما دخل السياسة بالموسيقى أصلاً؟»

تتحرك بعضُ السيارات أمامي فأَسْتَبْشر خيرًا. أتقدَّم بسيّارتي خمسة أمتار لتتوقف مرةً أخرى. أجول بناظِرَيَّ: المناظر المعهودة، وجوه أناسٍ محشورين داخل سيّاراتهم مثل السردين، كميّة هائلة من علب السردين تقف ساعةً أو أكثر لتتحرك عشرة أمتار أو أقلّ حسب مزاج الجنود وسبحانيّتهم. أَشْعر داخل سيارتي ـ وهي تحويشةُ عمري ومدعاةُ فخري ـ بالعجز. ماذا نفعتني هذه السيّارة؟ محركٌ ذو قوة مائة حصان أو ألف بغل؟ ها أنا عاجز عن التقدم مائة أصبع. أتذكّر الشاعر، صديقي اللدود، المنتسِبَ إلى الشُّعوبيّة، حين مازحني: «ما دمتَ تؤْمن بالقوميّة العربيّة يا ابن النَّصْرَانيّة فلماذا اقتنيتَ سيارةً من صُنْع الفرنجة يا شاطر؟ اِمتطِ دابّةً عربيةَ الصنيعة، إذن، ها.. ها.. ها.. أو ربما حاجةً أخرى من فخر التكنولوجيا القحطانيّة، أرجيلةً شاميّةً مثلاً. هي..هي..هي.»

على يساري ألَحْظُ سيارةَ مرسيدس فخمةً، أو هي كما يُدَلِّعونَها في أنحائنا «شبح.» هذه «مطيّةٌ» ألمانيّة حقيقيّة، وسعرُها يَبْلغ خمسةَ أضعاف سعر مطيّتي بلا أدنى شك. من أين يَحْصل الناسُ على مثل هذه الأموال؟ أُراقب وجهَ السائق شزرًا: يبدو لي ثريَّ حربٍ، لعلّه من أثرياء الانتفاضة الأولى؟ أو من أثرياء ثورة ١٩٣٦؟ لا أدري. لكنه قطعًا لا يَشْعر برامي، ولا تهمّه هواجسُ البزق، ولا خاطَبَه جميل الطنبوري في منامه البتّةَ. غيظي من الشبح الحديث والفخم يجعلني أَكْره الرجل («ما تمتَّع غنيٌّ إلا ممّا جاع به فقير.»)[1] ولكنْ ما أَغْنَى عنه مالُه وما نَهَب؟ ها هو قابع مكانه مثلي ومثل الآخرين، إلى ما شاء الجيشُ، حتى لو كان «شَبَحُه» بقوة مليون حصان. تَنْبس شفتاي بالكلمات «وشو يعني؟.. طُزّ!» يراني أحرك شفتيّ، فيردّ بإيماءةٍ من رأسه أن: «أهلاً وسهلاً.»

من أين اكتسَبَ شعبُنا هذه الموهبةَ العجيبةَ على الألقاب والتدليع؟ أتذكّر أنّ أهل رام الله ـ البلدة التي أنا قاصدُها إذا ما استطعتُ إليها سبيلاً ـ يُطْلقون لقبَ «فراشة» على طائرة الاستكشاف

١ ـ عليّ بنُ أبي طالب.

العُودُ والحاجزُ وهاجسُ البُرْق

الإسرائيلية، التي تحدِّد المواقعَ المستهدفة داخل مدينتهم تسهيلاً لمهمّة «فراشات» أخرى تأتي فتقصفها! «فراشة» يا عالَم؟! ومِنَ العجب أنّ رامي أشار بيده إلى الطائرة مبتسمًا وقال «ها هي الفراشة يا أستاذي؛» قالها والفخرُ يَغْمره لقدرته على تشخيصها، وكأنّه عاثرٌ للتوّ على حَجَر الفلاسفة. أمره غريب، رامي هذا: أُعلِّمه البرقَ والعودَ والموشَّحَ كي يَشْعر بعَظَمَةِ جذره الضاربِ في هذه الأرض، وتأتي «الفراشةُ» لتُطَهِّر الأرضَ نفسَها منه ومن جذره ومنّي. أشْعر فجأةً بانقباضٍ مبهم؛ أغدو «على قلقٍ كأنّ الريحَ تَحتي.»[1] ماذا لو سبقتني «الفراشةُ» إليه وأنا مصلوبٌ هنا قرب هذا «الشبح» إلى أبد الآبدين؟ ترى، هل أراه ثانيةً؟ وما الحكمة في أن تعلِّم البرقَ لفتًى مستهدَفٍ من أقوى «فراشات» الرجل الأبيض؟ لا تستهترْ بالبُرْق وقدرتِه على مقاومة العِدى، بدليل أنهم قَصَفوا خلال ستة أسابيع ثلاثَ قاعات موسيقيّة في رام الله وبيت لحم وبيت جالا كنتُ قد عزفتُ فيها، حتى انتابني شعورٌ أنّ موسيقاي هي المستهدَفُ غيرُ المعلَنِ لهذا القصف!

أَذْكر جدالاً ساخنًا احتدم بيني وبين «قانْشِه» في سيّارتي على طريق بيت جالا حين ادّعى أنه يلحّن موسيقى أرمنيّةً مستخدِمًا تقنيّةَ الدوديكافونْيَة،[2] في حين أوضحتُ له ـ وبالقول الفصل ـ أنّ استخدام تقنيّات شونبرغ والدوديكافونْيَة تحديدًا يزيل حتمًا كلَّ السمات والملامح العِرْقيّة عن أيّ موسيقى. عبثًا حاول المسكين أن يدافع عن رأيه مستخدِمًا المفرداتِ القليلةَ التي يُتْقنها بالإنكليزية، ورحتُ أنا أفنِّد آراءه بشدّة، لا بل اتهمتُهُ بتغريب الموسيقى الأرمنيّة الأصيلة بدافع كُرهه للأتراك! توقفتْ بنا سيارتي يومَها بعنف مفاجئ إذ تعرقلتْ بحاجز من حجارة، لنجد أنفسَنا محاطين بالجنود الشاهري الأسلحة من جهة وبالشباب الشاهري الحجارة وزجاجات المولوتوف من الجهة الأخرى، إضافةً إلى مصفَّحتيْن جاثمتيْن على مدخل «قُبَّة راحيل»:[3] قبر راحيل زوجةِ يعقوب المدعوّ إسرائيل! لا أدري إنْ كانت نفسُ راحيل المذكورة في الإنجيل هي «صوتٌ سُمِعَ في الرامةِ. نوحٌ وبكاءٌ وعويلٌ كثير. راحيل تبكي على أولادها ولا تتمالك أن تسلو فقدانَهُم.»[4] لطالما أثارت هذه العبارةُ حاجتي إلى البكاء، ولشدّ ما حاولتُ استحضارَ وجه راحيل إلى مخيّلتي: رأيتُها معلِّمتي من الصفّ الثالث الابتدائيّ؛ فهي الأخرى فقدتْ طفلها رضيعًا.

مضت أربعون دقيقة على وقوفي هنا. لم أعد أسمع أصوات المُحَرِّكات من حولي. أرى أناسًا على وشك الانفجار أو الانتحار أو الانعصار صبرًا أو قهرًا. صمتٌ ثقيلٌ يُغَلِّفُ صوتَ الشيخ محمد رفعت اذ يغزو فضاءَ سيّارتي من الكاسيت: ﴿وَإِذْ قالتِ الملائكةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللّهَ اصطَفَاكِ وطَهَّرَكِ واصطفاكِ على نساءِ

---

١ ـ أبو الطَّيِّب المتنبي.

٢ ـ تقنيّةٌ تلحينيّةٌ تبلورتْ في عشرينيّات القرن الماضي على يد الملحِّن النمساويّ آرنولد شونبرغ. وهي تقضي بإلغاء النظام المألوف للسُّلَّم الموسيقيّ، وتحتِّم على الملحِّن معالجةَ النغمات المختلفة بالتساوي، وتَمْنع إكسابَ أيّ نغمةٍ مركزيّةً ما أو أفضليّةً على غيرها لكي تَضْمن عدمَ نشوء إيحاءات سُلَّميّةٍ أو نظاميّة تقليديّة.

٣ ـ مكان مقدّس لليهود يقع على مدخل بيت لحم وبيت جالا.

٤ ـ العهد الجديد، إنجيل متّى، أصحاح ١٨/٢.

«لا تقلْ لي إنّك ستحارب إسرائيل وأميركا بالبُزق؟!» (صورة لخالد جبران وسهيل خوري)

العالمينَ يا مريمُ اقْنُتي لربِّكِ واسجُدي وارْكَعي مع الراكعينَ﴾.[1] بروحي أنتَ يا شيخ محمد، عليك ينطبق قولُ الرسول ﷺ: «لقد أُوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود.» إنّ خوف هيرودس من رضيع مريم دَفَعَه إلى ذبح أطفال بيت لحم قبل ألفيْ عام، فبكت راحيل. تُرى، هل عاودت النوحَ والعويلَ الآن، أم عساها تتمالك أن تسلو فقدانَ أولاد «هاجر؟» وبالمناسبة، ما هي مَسْألة «هاجر» بالضبط؟ أهي خوفُ سارة على طفلها من طفل الجارية، أم أنّ للقضية أبعادًا أخرى؟ سارة خافت على رَجُلِها من جمال العيون العربيّة، فطردتْ هاجرَ وابنَها وشرَّدَتني إلى ستين داهية. أَوَيُطالبنا كلينتون اليومَ بالتنازل عن حقوق جدّنا إسماعيل بسبب التقادم...؟

«والأنبياءُ هناكَ أيضًا يَعْبُرون

وينصتونَ لصوتِ اسماعيلَ يُنْشِدِ: يا غريبُ

أنا الغريبُ وأنتَ مثلي يا غريبَ الدار

عُد يا عودُ... بالمفقودِ، واذبحني عَلَيْكَ

منَ الوريدِ إلى الوريدِ.»[2]

آه يا محمود.. بأبي أنتَ وأمّي! أتَرى يا محمود كيف أنّ العود يعصى الاستسلام للهواجس فيتنبّأ بأثرٍ رجعيّ فقط؟

من هو الذَّبيحُ إذًا؟ إسماعيل أم إسحق؟ أم لعلّهما ذبيحان؟! ما أفظعَ تصريف كلمة «ذبيح» للمثنّى! هل المثنّى من مميِّزات العربيّة وحدها؟ أنا أحب المثنّى، ولطالما فاخرتُ به معارفي من أبناء اللغةِ الأخرى. ويبلغ المثنّى أَوْجَه، حسب رأيي، في هذا الكلام:

فَلَو أَنّا على حَجَرٍ ذُبِحْنا جرى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقينِ

الشاعر مجهول، ولعله «إسماعيل.» إخالُهُ يناشد أباه قبل أن يخوض «روليت» الذبح قسرًا! وما زلنا نتوارث إنشاده على أسماع أحفاد الآخر حتى يومنا هذا.

أرى امرأةً غايةً في الجمال تسير على مفرق «الرام» المكتظّ بالجنود. أتذكّر صديقي الذي قال: «لاحظِ المفارقةَ، في أنّ أيَّ امرأة تمشي أو تقف في هذا المكان الفظّ تبدو فجأةً غايةً في الجمال والأنوثة.» لكنّ هذه المرأة جميلةٌ حقًّا، ولعلّها «هاجر.»

فجأةً، ومن دون إنذار ولا مؤشِّر، تحصل الأعجوبة. إخَالُ السماء انفطرتْ عن هاويةٍ مربَّعة. بدأت الحجارةُ تنهال بالمئات على الجنود، الواقفين والقابعين داخل «الجيب» العسكريّ. من أين تأتي كلُّ هذه الحجارة؟ لا أتمكّن من تحديد المصْدر، لعلّها حجارةٌ من سِجِّيل؟ بدأتْ جلبةٌ فظيعة، ضوضاءٌ وصراخٌ وبكاءُ أطفالٍ ونساء، حالةٌ عارمة من الهلع. ثم بدأ إطلاقُ النار العشوائيّ. يستولي عليّ خَوْفٌ مؤلم. حلقي جافٌّ ومتصدِّع. العَرَق يَنْسَلُّ على ظهري كأفعى. ماذا لو، وماذا لو، وماذا؟! لا قدَّر الله.. كيف سيكون وقْعُ الخبر على رامي؟ هل سيُبَلِّغ هاجس البزق أم تراه سيفضّل «الشبح»؟ لا قَدَّرَ الله.. وأمي؟ مَنْ سَيَنْعاني إليها؟ أتوق لو خاطبها إرميا النبيُّ: «جُزِّي شَعْرَكِ واطْرَحيه وارفعي على الهضابِ مرثاةً...»[3] هيهات هيهات! الحجارة تنهال مثلَ زَخِّ المطر، صوتُ ارتطامها بالسيارات يكاد يطغى على العيارات الناريّة. أشُمُّ رائحة البارود. أحبّها، فأشعر

١ ـ سورة آل عمران.

٢ ـ محمود درويش، **لماذا تركتَ الحصانَ وحيدًا**، «عُود إسماعيل.»

٣ ـ العهد القديم، إرميا، أصحاح ٢٩/٧.

العُودُ والحاجزُ وهاجسُ البُزُق

بالذّنْب. أرى الناس يَهْجرون سياراتهم ويَهْربون حاملين أطفالهم. حتى سائق «الشبح» البغيض يَهْجر سيارته ويهرب: طبعًا يا عمّ؛ فأنتَ لم تدفع ثمنَها من جَيْبك! الحقيقة أنّي خائفٌ حتى الموت. أودّ لو أهرب، لكنْ إلى أين؟ وسيّارتي، كيف أتركها؟ ورامي؟ بأبي أنتَ وأمي، هل أراكَ ثانيةً؟ ثم مِنْ أين هذه المقدرة على التَّنَبُّؤ التي تميِّزَ الآلَآت ذاتَ الأوتار المعدنيّة مثل البزق والطنابير؟ يؤْمن العرب أنّ القَصَبَ يحنّ أبدًا إلى منبته الأصليّ، وهذا ما يضفي على الناي أنينَه المميَّز. والحنين هو صوت الناقة إذا اشتاقت إلى وَلَدِها. والبُزُق؟ لا أدري.. لعلّه يَحنُّ إليكَ، لعلّ هاجسَهُ نابعٌ من طول انتظارِكَ، لعلّها موسيقاكَ ولغةُ غَدِك. خذه إذًا، داعبْ عُنُقَهُ الطويل، إذا مِتُّ، واعْزِفْ:

فَلَوْ أنَّا على حجرٍ ذُبحنا   جرى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقينِ

لا أظنّ الإدارة ستسمح بتأبينٍ رسميّ وبتعطيلِ الدراسة يومًا كاملاً؛ فهذا بالطبع أمرٌ غير مقبول حسب خطط الموازنة السنويّة. لا بأس، فليكن تأبينًا غيرَ رسميّ، لا ضَيْر. يكفيني أن تقوم بعد انتهاء المراسيم بإنشاد هذا الكلام:

كفى حَزَنًا بِدَفْنِكَ ثُمّ إنّي   نَفَضْتُ تُرابَ قَبْرِكَ من يَدَيَّا
وكانت في حياتِكَ لي عِظاتٌ   وأَنْتَ اليومَ أَوعَظُ مِنكَ حَيًّا.(1)

خالد جبران

أستاذ العُود والبُزُق في رام الله. من مواليد الرامة بالجليل، ويقيم في القدس.

---

1 ـ أبو العتاهية.

وطـنـي فـي قـلـبـي

جاكلين صفير

في حوار دار بين أخي وابنه رمزي (١٥ سنة) على خلفيّة خبرٍ متعلّق بالانتفاضة، والمحاولاتِ التي تسعى إلى «تهدئة الأوضاع»، قدّم رمزي التعليقَ التالي:

«الوطن ليس ما نعيش فيه بل ما يعيش فينا...»

فالوطن الذي يعيش فينا، في وجداننا، هو خلاصةُ الهويّة وما تَحْمله من توقّعات وطموحات. إنّه المحرّك الذي يجعلنا نتحمّس لكل فكرةٍ نرى فيها مشروعًا لتجسيد تلك الطموحات والتوقّعات.

لم أتخيّل في يوم من الأيام قسوةَ الغربة. أنا أعيشها في وطني، وأخاف منها على كلّ مَنْ يتوق إلى العودة إليه. فالغربة الجغرافيّة تَجْعل من الوطن حلمًا مجرّدًا بعيدًا عن تحدّيات الواقع، وعن فعله في تضييق الفجوة ما بين الحلم والحقيقة. وفي النضال من أجل التحرر يتجلّى الوطنُ الحلمُ ويصبح هدفًا يسخَّر من أجله كلُّ شيء: «الغالي فداكَ رخيص يا وطني...» وما أصعبَ خيبةَ الأمل حين يُستهان بالحلم ويُستبدل بواقعٍ لم يُبْقِ منه سوى الشّعار والشّعْر!

أتذكّر كيف أخذ يتشكّل وطني في قلبي وأنا طفلة. كنتُ أعشق كلَّ فرصة تتاح لي لكي ألتقيَ ترابَ وطني وأشتمَّ رائحةَ الصنوبر والزيتون. مازلت أتذكّر وجوه الناس الذين التقيتُهم في طفولتي وأحببتُهم قدرَ ما أحبّوني. إنّ حارتي تعشّش في قلبي، ومازلتُ أعيش في البيت الذي ولدتُ فيه. ولكنْ أين ذهبتْ حارتي؟

لقد عشتُ العقد الأول من حياتي في جوّ مفعم بوطن مسلوب. فأبي لاجئ أعاد بناء حياته مع أمي، التي عاشت في كنف أب وجدٍّ أصبحا جزءًا من أسطورة طفولتي. وفي حضن جدتي وأمي زرعتُ بذورَ محبتي لوطنٍ حلم فيه والدي وجدي.

بيتي شقةٌ في عمارة اشتركنا فيها مع عائلات أخرى، معظمُ أفرادها، مثل أبي، لاجئون من القدس. نراها من نوافذ العمارة ونشمّ رائحتها في أحاديث أبنائها المشرّدين. لكنّي لم أكن جزءًا من هذه المأساة، بل تحوّل كلُّ شوق أهلي وحسرتُهم على حلم قد يضيع إلى عيشٍ مشحونٍ بحدّة الطفولة التي لا تَعْرف إلا حبَّ الحياة والإصرارَ على إسعادِ مَنْ يحيطها. لم أكن أميِّز آنذاك أنني صمّمتُ على أن أستردّ وطنَ أبي وجدي المسلوبَ. كنتُ أخطّ معالم هذا الوطن في كل نبرةِ صوتٍ وآهٍ سمعتُها وأنا أَرْضع من حليب أمي.

◆ ◆ ◆

اليوم أعيش الغضبَ الذي يرافق رفضَ الاستسلام. فحارتي وحلم أبي مهدّدان لا من الخارج وحده، ولكنْ من الداخل أيضًا. لقد انصهر اغترابي بهجرة أبي، وأصبحتُ أحيا في عالم جدي الذي عاصر حُلُمَ التحرُّر. فمنذ بدأتُ حياتي مربّيةً وأنا أشعر بأنّ مهمتي الأولى تَكْمن في تفجير ينابيع الحياة والأمل التي تعيش في صدور الأمّهات والأطفال. وكانت فرصتي الأولى في الانتفاضة الأولى.

أَذْكر تجربةً عشتها في «بدّو.»[1] كنتُ أتابع مشروع إنشاء روضة أطفال في قرية «القبيبة،» وكان الأطفال يأتون من «بدّو» و«بيت عنان» و«القبيبة.» عملتُ منذ البدء على إشراك الأمّهات في التفكير بما ستكون عليه الروضة. وعملنا معًا على اكتشاف ما يريده الأطفال. تعلّمْنا كيف نصغي إليهم. تحاورنا حول أولويّاتنا في العمل. تعلّمنا كثيرًا من الأطفال، واكتشفنا من خلالهم ما هو دفين فينا. تذوقنا فرحةَ التعلم، وبدأنا نكتشف القوةَ الكامنةَ فينا. لم

١ ـ قرية في قضاء رام الله.

وطني في قلبي

نَخَفْ من طرح الأسئلة، حتى الصعب منها. وذات يوم وأنا في طريقي إلى القبيبة أوقفني رجلٌ مزارع في طريقه إلى حقله. كان منفعلاً وتبدو عليه ملامحُ غضب. شعرتُ بشيء من الخوف وأغلقتُ نافذةَ السيارة وتسارعتْ دقات قلبي. سألني: «إنتِ الدكتورة اللي بتعلّم البنات؟» فأجبته بنعم، فتابع معاتبًا: «ليش ما بتشتغلي كمان مع الآباء؟ صَرن نسواننا يِعرَفِن أكثر منّا عن الأطفال، وهذا ما بصير ... كمان إحنا بدنا نفهم...» ولكنّي لم أستطع متابعة عملي مع الرجال في القرية لأنّي اتُّهِمْتُ من قبل سلطات الاحتلال بأني أمارس «التعبئة الشعبية.»

ما الذي دَفَعَ هذا الرجلَ إلى مواجهتي؟ كيف شعر بأثر العمل؟ لماذا استُهْدفتْ هذه المبادرةُ من قبل الاحتلال؟ وهل ستنجح اليوم؟ وأهمّ سؤال هو: هل أستطيع أنا أن أقوم بمثلها اليوم؟

بالطبع أستطيع... فأنا أقوم بممارسة قناعتي التربويّة بشكل أوسع وأكثر فعّاليّة، نتيجةً لما راكمْتُه من خبرة عبر السنوات الماضية. لكنّ الاختلاف يَكْمن في أنني على يقينٍ اليومَ أنّ الأفق بعيد، وهو يَبْعد بتسارعٍ يخيفني ويُشْعرني بأنني قد لا أعيش اليومَ الذي سيتجلّى فيه حلمي. ولكنني أعرف أيضًا أنني لا أستطيع التوقف عن المحاولة؛ وحتى لو أردتُ ذلك فأنا على يقين أنّه لا بد أن يتحقق تحرُّرُ شعبي، لا من الاحتلال وحده بل من كل القيود التي تكبّله أيضًا، وبخاصةٍ تلك التي تَكْمن في داخله.

◆ ◆ ◆

حين يتباين الوطن الذي يعيش في القلب مع الوطن الذي نعيش فيه يتولّد الشعورُ بالاغتراب. هذا ما أَشْعر به اليوم، وهو ما يثير غضبي. فأنا امرأة في عالمٍ يسوده رجال مكبّلون. وتجربتي في «بدّو» تجعلني أؤكّد أنّ القضيّة ليست قضيّة مساواة، بل قضيّة تحرُّرٍ لكلٍّ من الرجل والمرأة. فالرجلُ في مجتمعنا يستمدّ سلطته ممن يقمعه سواء أكان من الأعرافِ والتقاليدِ التي عملتْ على تجريده من ممارسة إنسانيّته وأحاسيسه وأَخضعتْه لأحكامٍ لا يجد سبيلاً إلى تحدّيها، أم من خلال تنصيبه وصيّاً على حركة سياسية تكبّله ضمن قيودٍ لعبةٍ لا يسيطر عليها بل يناضل فقط من أجل حقّه في المشاركة فيها. فكيف يُمْكن امرأةً تذوّقتْ طعمَ التحرُّر أن تَخْضع لسلطةِ رجلٍ مكبّل؟

◆ ◆ ◆

ثم إنّي مستقلة في واقع تتقاسم فيه الأحزابُ الوصايةَ على الوطن؛ وهذا أمرُ الأمرّيْن! وأعيش اغترابي هذا كمهنيّة. فأنا مربّية تؤْمن بتحرير الإنسان وبتفجير طاقاته ليكون مَنْ يريد أن يكون. فالإنسان يُولَد وهو مجهَّزٌ بفطرة التعلم، وبمنظومة متكاملة من الإمكانات التي تتفتح بفضل تفاعل الفرد مع كلِّ ما يحيط به من بيئة مادية وبشرية.[1] وهنا أجد نفسي أمام التحدّي الأكبر، لأنّ النظرة السائدة في مجتمعنا تميل إلى التوجه السلوكيّ الذي يعطي المجتمعَ الحقَّ في التحكم في نتائج العملية التربويّة، وهو ما يَحْرم الفردَ حقَّه المبدئيَّ في المشاركة في صنع قراره الحياتيّ. ومن هنا أجد أنّ صراعي لا يَقْتصر على «السلطة» وحدها بل على الرؤيا أيضًا.

◆ ◆ ◆

أخيرًا أنا مسيحيّة تعيش اغترابًا مضاعفًا. فأنا أعيش اغترابًا بسبب هويتي المسيحيّة حين تتخذ المسيحيّةُ التشكيلَ الطائفيّ. وأنا كمسيحيّة أعيش اغترابًا بسبب وطن تسوده قوةٌ إسلاميّةٌ لا تَقْبل

١ ـ هذا ما اكتشفه علمُ الوراثة، وما يَدْعم نظريّاتِ علم النفس التطوُّريّ.

أنا مسيحيّة عربيّة ومصطلح «القوّة الوطنيّة والإسلاميّة» يجسِّد عنوانَ إحساسي بالغربة

جاكلين صفير
عميدة كليّة الآداب بجامعة بيت لحم في فلسطين.

أو لا تكتفي بكونها قوةً وطنيّة. ولا شكَّ أنَّ هذا المستوى من الصراع يَضْربني في الصميم. فأنا مسيحيّة عربيّة في جوهري؛ وفي كل لحظة يزداد فيها التركيزُ على إسلاميّة الهويّة العربيّة أجد في ذلك رفضًا لمن أكون. إنَّ مصطلح «القوّة الوطنيّة والإسلاميّة» يجسِّد عنوانَ إحساسي بالغربة. فهذا المصطلح يحاول أن يكون جامعًا ولكنّه في الواقع يستثني كلَّ مَنِ اختار أن يكون مستقلاً. وتصبح هذه القوّةُ سلطةً تَقْتصر على نفسها في صنع القرار، وتَسْتبعد المواطنَ من الإسهام فيه. وبين «السلطة الوطنيّة» و«القوة الوطنيّة والإسلاميّة» يجد المواطنُ نفسَه مجرَّدًا من حق اتِّخاذ القرار بل ومن مناقشته أيضًا؛ فهو يقف أمام «سلطة» تدّعي الوصاية الكاملة عليه وعلى مصيره.

◆ ◆ ◆

كيف نقيم التوازن بين الهويّة الفرديّة، والهويّة الجماعيّة القائمة على رؤية وطنيّة تَقْبل التعدُّديّةَ بمختلف أشكالها؟

كيف نعمل على النهوض بالواقع الثقافيّ الذي يقوم على أساس احترام المبادئ والقيم المنبثقة من موروثنا الثقافيّ وتطوير رؤية تربويّة تمتاز بالأصالة والتجديد؟

كي لا يصبح الوطنُ حكرًا على مجموعة دون غيرها... وكي لا نتحوّل أشخاصًا يَحْملون «بطاقةَ هويّةٍ فلسطينيّة» ولا يَجْمعهم سوى الارتباط التاريخيّ والجغرافيّ على أرض وطنٍ تحوّل مكانَ إقامة... من أجل كل هذا، لا بدَّ من أن نَقْبل تحدِّي مواجهة الذات وتقويم واقعنا بموضوعية. هذا خيار، إنْ لم تلتزم به الجماعةُ فإنَّ في استطاعة الفرد أن يُلْزم نفسَه به. ذلك أنَّ التحرُّر قرار شخصيّ قبل أن يكون قرارًا سياسيّاً. وهذا هو ما اكتشفه رمزي حين قال: «الوطن ليس ما نعيش فيه بل ما يعيش فينا.»

تعايش من دون استعمار

عمر برغوثي

ترجمة: س. إ.

تقديم

ما إنْ ظنّت إسرائيل أنّ الحلّ القائم على دولتيْن فلسطينيّة وإسرائيليّة قد نَضَجَ أخيرًا حتى جاءت الانتفاضةُ الفلسطينيّةُ الثانية لتُذكّر إسرائيلَ والعالمَ أنّ الفلسطينيّين لا يَنْسون ولا يسامحون ـ بل الحق أنّهم لا يستطيعون أن يَنْسَوْا ولا أن يسامحوا ـ ولادةَ إسرائيل بالخطيئة دولةً كولونياليّةً، ولا أن يَنْسَوا أو يسامحوا طبيعتَها الإقصائيّةَ العِرْقيّةَ التي تؤيّد استعماريّتَها في داخلها.

فجأةً، استحال الأمرُ «المقدّس» القائلُ بأنّ الاحتلال دام «٣٤» عامًا فقط أمرًا كاذبًا وخادعًا، بل وبائدًا caduc أيضًا. وبدلاً من ذلك فَرَضَ رقمُ «١٩٤٨» الطاغي الحضور نفسَه على مُجْمل الخطاب السياسيّ، وباتَ الاستعمارُ لا يعني احتلالَ الضفّة الغربيّة وقطاع غزة وحدهما. وراح الإسرائيليُّون على امتداد ألوان الطيف السياسيّ يَهْدرون «إنّه الخطر الوجوديّ!،» محرّكين بذلك ما أسماه الحاخام مايرْ شيلر[١] «علمَ الضحايا» victimology الرّاسخَ الجذورِ والمُحْتَكَرَ الدورِ. وتفسِّر البروفسور تانيا رينهارت من جامعة تل أبيب «لِمَ كان الحديثُ عن عام ١٩٤٨ متداوَلاً في حينه» بالقول إنّ «الصورة المنحرفة التي شكّلها الإسرائيليُّون عن أنفسهم، وقادَتْها دعايةٌ هائلةٌ، هي أنّهم هم المحاصَرون، وهم المقاتِلون من أجل استقلالهم، وهم المهدَّدون من قِبل الإمبراطوريّة الفلسطينيّة والعالمِ العربيّ بأسره، تمامًا مثلَ ما كان عليه الأمرُ عام ١٩٤٨.»[٢]

هذا التذكُّر «غيرُ المرحَّبِ به» لعام ١٩٤٨ يُلقيه الباحثُ الإسرائيليُّ ميرون بنڤينستي على عاتق المؤسَّسة الإسرائيليّة لسعيها الملتبس، أيامَ حكم باراك، إلى كسبِ تماسُكٍ داخليٍّ يَصْعب منالُهُ يومًا بعد يومًا، قائلاً:

«لقد وَجَدت المؤسَّسةُ الإسرائيليّةُ علّةً جديدةً لوجودها: وهي تشجيعُ المقاتلين المدلَّلين الذين خاضوا 'المعركة الأخيرة' [عامَ ١٩٤٨]، وتزييتُ مِحْورِ ' الخطر الذي يهدِّد وجود إسرائيل.' إنّ الإغراءَ المتمثِّل في محو نصف قرنٍ بأكمله هو من القوّة بحيث خَضَعَتْ له الحكومةُ الإسرائيليّةُ نفسُها، وراحت تَعْمل على تعزيز الإحساس بأنّ ما يَحْدث الآن قد سَبَقَتْ رؤيتُه من قبلُ déjà-vu...»[٣]

غير أنّ مؤيِّدةً صريحةً لآرييل شارون، جاءَتْ إلى إسرائيل قبل عشرة أعوام فقط قادمةً من الاتّحاد السوفياتيّ (سابقًا)، كانتْ ربما أكثرَ تمثيلاً للمزاج الإسرائيليّ العامّ كما تَعْكسه وسائلُ الإعلام. فقد عبَّرتْ عن «خوفها» بالقول: «إنّ البلاد على شفير الامِّحاق! إنّنا نحتاج إلى مَنْ يُنقذ البلاد، إلى مَنْ يقول علنًا إنّ اتفاقيّات أوسلو عمليّةٌ انتحاريّةٌ. علينا أن نتوقّف عن إعطاء الأراضي للفلسطينيّين، لأنّه كلّما أعطيناهم أكثرَ ازدادتْ شهيّتُهم. انظروا إلى الخارطة! إنّ إسرائيل مطوّقةٌ ببحرٍ من العرب المتوحِّشين القُساةِ الجائعين.»[٤] والحق أنّه لا يمكن تجنُّبُ هذا الرابط اللازم بين العنصريّة والنبوءات القياميّة، كما يبدو في الاقتباس السابق وفي تصريحات كثيرة مماثلة طُبِعتْ أو أُذيعتْ أو أُفصِحَ عنها من قِبَل قطاعٍ متعاظمٍ من اليهود الإسرائيليّين القادرين على تصوُّر «انهيارِ إسرائيل» بالمعنى **الجسديّ** للكلمة.

---

١ ـ Rabbi Mayer Schiller, quoted in **Issues of the American Council for Judaism**, Summer 1998.

٢ ـ Tanya Reinhart, "Stop Barak!" October 2000, http://indymedia.org.il/imc/israel/webcast/index.php3.

٣ ـ Meron Benvenesti, "The Final Battle in a Cyclical War," **Ha'aretz**, November 30, 2000.

٤ ـ Lee Hockstader, **Washington Post**, January 16, 2001.

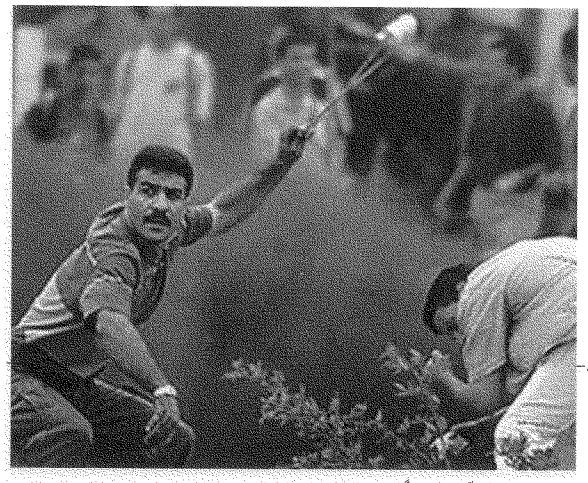

الانتفاضة تهدّد جذرياً آفاق تحقيق المشروع الصهيوني

ولكنْ، ومن منظور نقيضٍ تمامًا، فإنّ فحصًا للحقائق الدامغة التي أفرزتها الانتفاضةُ الثانية، ولأعمالِ القتل، وللأضرار الجماعيّة، وللتنكيلِ بالفلسطينيّين تنكيلاً غيرَ متكافئ، وللمستوى المروِّع من الدمار اللاحقِ بالبنى التحتيّة الفلسطينيّة، لا يُمْكن أن يعزِّز صحةَ ذلك «التهديد» المبالَغ فيهِ كثيرًا. بل يرَجِّح على العكس أن يبيِّن مثلُ ذلك الفحص لفلسطينيّين كُثر، ولإسرائيليّين ضميريّين كُثُر، ولمحبِّي سلامٍ كُثُر على امتداد الكرة الأرضيّة، أنّ المسؤولين والمثقفين الإسرائيليّين الذي يَصْرخون «إنّه الخطر الوجوديّ!» إنّما كانوا يُطْلقون ـ وبخداعٍ شديد ـ إنذارًا كاذبًا، وكأنّهم يكرِّرون ريبرتوارًا كاملاً من المقطوعات الماساديّة* التي أجادوا التدرُّبَ على أدائها. ومن وجهة النظر هذه، فإنّ استحضار الخوف القياميّ المذكور يعبِّرُ عن إدمان إكراهيّ على التلاعب بوسائل الإعلام وقَلْبِ الحقيقة رأسًا على عقب من طرف أولئك المسؤولين والمثقّفين الإسرائيليّين على حدّ سواء، في مسعى يائسٍ لحجب المجزرة البطيئة ‹المرتكبة بحقّ الفلسطينيّين› وللتهرُّب من المسؤوليّة الأخلاقيّة المترتّبة عليها ولاستدرارِ العطف من رأيٍ عامٍّ عالميّ يزداد سخطًا واستياءً ‹من الممارسات الإسرائيليّة›.**

إلاّ أنّ ثمّة مثقفين صهاينة أكثرَ تركيبًا وافقوا على أنّ مثل تلك الاستغاثات مبالَغٌ فيها، فوصفوا «الخطرَ الوجوديّ» المزعومَ بتعابيرَ مغايرةٍ تمامًا. فالوزير الإسرائيليّ يوسي بيلين، مثلاً، يَكْشف بصدقٍ عن ثيمةٍ ثابتةٍ في الإيديولوجية الصهيونيّة حين يؤكّد أنّ «الصراع الطويل مع جيراننا العرب لم يكن جزءًا من خطّة مؤسِّسي الصهيونيّة» الذين جاهدوا «لكيْ يعيشوا حياةً طبيعيّة ومسالمة في هذا البلد.» وفي رأيه أنّ الانزلاق إلى صراع أبديٍّ ‹مع العرب› سيؤدّي حتمًا «إلى نهاية مميتة للحلم الصهيونيّ» بحيث «يغادرُ البلادَ أولئك الذين يمتلكون قَدْرًا كافيًا من الشباب والمرونة، وأمّا اليهود القاطنون في الدول المتقدِّمة فلن يفكّروا في اللحاق بنا ‹إلى إسرائيل›.»[1] ويردِّد توماس فريدمان من جريدة **نيويورك تايمز** المعزوفةَ نفسَها، فيذكّرنا بأنّه على الرُّغم من كون إسرائيل «بلدًا جبّارًا جبّارًا، وإسبارطةً نوويّةً» لن تُوشِكَ على الانهيار بسبب الانتفاضات الفلسطينيّة، فإنّ نقطةَ ضعفها إنّما تَكْمن في داخلها، أيْ «في إحساسها بأنّها عالقةٌ إلى الأبد في صراعٍ طاحنٍ» يُمْكن في النهاية أن «يَحضّ أفضلَ مواطني إسرائيل وألمَعَهُمْ على الهجرة.»[2]

ويتصدّى هنري كسينجر، الذي يدعو بقوّة إلى «تخلٍّ فلسطيني رسميّ عن كل المطالب المستقبليّة،» للحديث عن هذه الحاجة الحاسمة إلى السّواء ‹الحالة السويّة› normality. فيكتب أنّ «إسرائيل تَعْتبر السلامَ تتويجًا للنضال من أجل الحصول على

* ـ الماسادا: قلعةٌ قديمة جنوب شرق فلسطين، وهي موقعٌ قيل إنّه شهد المواجهةَ الأخيرة بين اليهود والرومان في الثورة التي امتدّت بين عامَيْ ٦٦ و ٧٣ بعد الميلاد. وتقول **الموسوعة البريطانيّة** إنّ الجيش الرومانيّ احتاج إلى خمسة عشر ألف جنديّ في مواجهة ألف يهوديّ فقط (بمن فيهم نساءٌ وأطفال)، وطوال عامَيْن كاملَيْن، من أجل احتلال القلعة. وقد آثر اليهود المحاصَرون الانتحارَ على الاستسلام للعبوديّة، باستثناء سبعة أطفال ونساء. والماسادا اليوم رمزٌ «للبطولة اليهوديّة،» وواحدٌ من أهمّ المعالم السياحيّة في «إسرائيل.» (المترجم)

** ـ وضعتُ إضافاتي بين علامتَيْ ‹ ›، في حين أنّ إضافات المؤلِّف موضوعة بين علامتَيْ [ ]. (م)

١ ـ Yossi Beilin, "Moving Forward After Oslo," **Ha'aretz**, November 7, 2001.

٢ ـ Thomas Friedman, "A Mideast Policy for Mr. Bush," **The New York Times**, January 19, 2001.

تعايش من دون استعمار

وطن، وتعرّفه بأنّه سواءٌ يُنهي المَطالِبَ ويُحدِّد وضعًا قانونيّاً دائمًا.»[1] غير أنّ ذلك «السواء،» وبعيدًا عن اللياقات الديبلوماسيّة، إنّما يُعرّف على نحوٍ أساسيّ وكافٍ بأنّه تأبيدٌ للمشروع الصهيونيّ مجسّدًا بوجود إسرائيل **دولةً يهوديّةً**؛ ومن ثمّ فإنّ هذا «السواء» هدفٌ <إسرائيليّ> أقصى يُطمَحُ إليه. ولمّا كانت الانتفاضةُ، بأبعادها المختلفة التي سنستعرضها أدناه، تُقلقِلُ أو تهدّد جذريّاً آفاقَ تحقيقه، فإنّ الصهاينة سيَعدُّونها ـ **بالتعريف** ـ تهديدًا وجوديّاً.

والحقّ أنّ هذا «الخوف» الراسخَ الجذور على وجود دولة إسرائيل لا يُمْكن أن يُختَزَل ببساطةٍ إلى محض إظهارٍ عابرٍ لپارانويا* جماعيّة؛ كما أنّه لا يُمْكن أن يؤوّل بأنّه مجرّد حالةٍ متطرّفةٍ من الشعبويّة المُتَبلّةِ بأنواع الرُّهاب. فالواقع أنّه قد تمّ الإفصاحُ عن هذا «الخوف» ـ وغالبًا بصوتٍ جَهير ـ في الخطاب الرسميّ والثقافيّ في إسرائيل، وهو ما يسلّط الضوءَ على أولويّته. بل إنّ البيان المشترك الذي أصدره الفريقان «المفاوضان» الإسرائيليُّ والفلسطينيُّ، عقب انتهاء محادثاتهما الأخيرة في طابا، يؤكّد هو نفسُه بشكلٍ مرهفٍ على وجود ذلك البعبع الجديد، وذلك حين يقول: «لقد كانت محادثاتُ طابا غيرَ مسبوقة، من حيث جوُّها الإيجابيّ، وتعبيرُها عن الإرادة المتبادلة في الوفاء بالحاجات الوطنيّة والأمنيّة **والوجوديّة** لكلّ طرف.» [والتشديد منّي ـ ع.ب][2]

من منظوري الخاصّ، وبناءً على التحليل الذي أقدّمه أدناه، أرى أنّ «خوف إسرائيل الوجوديّ،» إذا أُوِّلَ بأنّه قلقٌ على استمرار إسرائيل وعلى شرعيّتها وعلى ركائزها الأخلاقيّة كدولة يهوديّة، إنّما هو خوفٌ حقيقيٌّ ومبرَّرٌ إلى حدٍّ كبير، وإنْ كان يَبْعث على الأسى من الناحية الأخلاقيّة. إنّه خوفٌ ينبثق من عواملَ إكراهيّةٍ متعدّدةٍ، فَضَحتْها انتفاضةُ الأقصى التي كشف جُؤَارُها ونبضُ قَلْبِها ـ بل وَبَعثا إلى الحياة وجسّدَا من جديدٍ ـ الجريمةَ الأصليّةَ التي اقترفها اليهودُ الصهاينةُ سنة ١٩٤٨ وبَعْدَها في حقّ الشعب العربيّ الفلسطينيّ. وكما يقول الكاتب الإسرائيليّ بنيامين بيت ـ هالاحمي:

«يبدو الإسرائيليُّون مَسْكُونين... بلعنة الخطيئة الأصليّة ضدّ العرب الأصلانيّين. ولكنْ كيف يمكن الحديثُ عن إسرائيل من دون تذكُّرِ اقتلاع غيرِ اليهود وإقصائهم؟ إنّ هذه هي الواقعة الأساسيّة العُظْمى عن إسرائيل، ولا فهمَ ممكنًا للحقيقة الإسرائيليّة من دونها. إنّ الخطيئة الأصليّة تَسْكُنُ الإسرائيليّين وتعذّبهم: فهي تَدْمغ كلّ شيء وتلطّخ كلّ أحد. ذِكراها تُسَمِّمُ الدَّمَ، وتَسِمُ كلّ لحظةٍ من الوجود.»[3] لقد كانت هذه الخطيئةُ الأصليّة، وهي أكثرُ الخطايا لاأخلاقيّةً على الإطلاق، هامدةً طوال عقود، هاجعةً «بأمانٍ» تحت سلسلة جديدةٍ متطوّرةٍ من الخطايا الإسرائيليّة المقترَفة منذ ذلك الزمن؛ ولكنّها ـ منذ الانتفاضة الثانية، ونتيجةً لها ـ بُعِثتْ من رقادها بعنفوان.

---

١ ـ Henry Kissinger, "The Peace Paradox," **The Washington Post**, December 4, 2000.

* ـ الزَّوَر الخُيَلائيّ: جُنون الارتياب أو الاضطهاد؛ الذُّهان الاضطهاديّ. (م)

٢ ـ Associated Press release, Joint Statement of the Negotiating Teams, January 28, 2001.

٣ ـ Benjamin Beit-Hallahmi, **Original Sins: Reflections on the History of Zionism and Israel** (Olive Branch Press, 1993), Quoted in "The Origin of the Palestine-Israel Conflict" www.cactus48.com.

«لم يخترع الشيطانُ عقوبةً تناسب قتلَ طفل!» (بياليك)

سيتمّ التركيزُ في هذه المقالة على ثلاثة أوجه بشكل خاصّ، وهي:

١ ـ الوحشيّةُ التي تَسْتخدمها إسرائيل في سعيها إلى قمع الهبّة الفلسطينيّة، وهي وحشيّة تعكس **لاأنْسَنَةً** dehumanization تُذكّر بتلك التي تخلّلتِ «الخطيئةَ الأصليّةَ» الأولى.

٢ ـ الإسهامُ الوجيز، ولكن الكاملُ، لمواطني إسرائيل الفلسطينيّين المهمَّشين، في أعمال الانتفاضة. وهذا إسهام حَطَّم ويُحطِّمُ وَهْمَ التعايش مع الاستعمار، ويدشّن عمليّةَ **إعادةِ وَصْلِ** أولئك المواطنين بإخوانهم وأخواتهم الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وغزة ودولِ الشتات.

٣ ـ الولادةُ الجديدة البارزة لما يُشْبه الإجماعَ الفلسطينيَّ والعربيَّ على **حقّ العودة** للاجئي النكبة وسُلالتهم، وهو ما أَشْعل نقاشًا كان هامدًا زمنًا طويلاً عن الأسس الأخلاقيّة لـ «الدولة اليهوديّة.»

١ ـ الوحشيّة الإسرائيليّة: نموذج في اللاأنْسنة

لقد دانت المنظّماتُ العالميّةُ المعنيّةُ بحقوق الإنسان، والأممُ المتحدة، وأصحابُ الضمير في كل أرجاء العالم استخدامَ إسرائيل «للقوّة المفرطة» و«للتكتيكات القتاليّة» و«للقوّة الناريّة غيرِ المتكافئة» في التعامل مع الانتفاضة. وذهبتْ منظمةُ العفو الدوليّة إلى حدّ الإعلان أنّ «هناك نسقًا من الانتهاكات المروِّعة لحقوق الإنسان، قد يرقى إلى اعتباره جرائمَ حرب.»(١) سأركّز هنا على البعد الأخلاقيّ من المسألة، ناظرًا إلى اللاأنسنة الإسرائيليّة في التعامل مع قطاع هشّ وبريء بشكل خاصّ من بين الضحايا الفلسطينيّين: وهو الأطفال. لعلّ أمورًا قليلة جدًا تستدعي إدانةً جماعيّةً مثلَ ما تَستدعيه إصابةُ طفلٍ عمدًا؛ وقد كتب بياليك يقول: «لم يَخْترع الشيطانُ عقوبةً تُناسِبُ قتلَ طفلٍ.»(٢) وتُثْبت البراهينُ الكاسحة، التي جَمَعَها بعنايةٍ العاملون في منظمات حقوق الإنسان والصحافيُّون، إطلاقَ إسرائيل النارَ عمدًا على الأطفال الفلسطينيّين باعتبارهم «أهدافًا مشروعةً» أثناء الانتفاضة. وسيَكْشف فحصٌ لعددٍ من هذه الحالات نَسَقًا من لاأنسنةٍ يُختزل بموجبها الأطفالُ الفلسطينيُّون إلى «أعداء» و«بهائم» و«مهاجمين معذِّبين» و«إرهابيّين،» من بين نُعوتٍ أخرى استُخْدِمتْ لوصفهم تمهيدًا لاصطيادهم بضمير نقيّ. بل إنّ أعمالَ القتل المتعمَّدة تلك روَّعتْ بعضَ مسؤولي الجيش الإسرائيليّ أنفسِهم؛ فقد أوردتْ **هاأرتز** أنّ «ضابطًا رفيعًا» قال: «لا أحد يستطيع أن يُقْنعني أنّنا لم نقتل، ومن دون أيِّ ضرورة، عشراتِ الأطفال.»(٣) وستساعد بعضُ الحالات الأكثر كشفًا على دَعْمِ هذا الزعم.

فحتى في عام ١٩٩٦، أيْ قبل الانتفاضة الحاليّة، قام أحدُ البالغين المسلّحين «بضربِ ورفسِ طفلٍ [في الحادية عشرة]، فصرَعه أرضًا، ثم وَضَعَ رِجْلَه على عنقه وضربه بمسدّس،» بحسب قول الادّعاء. وقد «عانى الصبيُّ إصابةً في الرأس، وكسورًا في العمود الفقريّ، ومات في اليوم التالي في المستشفى.»(٤) في بادئ الأمر برّأ القاضي القاتلَ، قائلاً إنّ الصبيّ «مات من تلقاء نفسه نتيجةً لضغطٍ نفسيّ؛» ولكنْ لاحقًا، وتحت ضغطٍ من المحكمة العليا التي أَسْمَت الحادثة «قتلاً خفيفًا،» حَكَمَ ذلك القاضي عليه بـ «ستة شهور

١ ـ Reuters, "Amnesty Slams Israel for Role in Mideast Violence," November 1, 2000.
٢ ـ Bialik, quoted in Israel Shamir, "Acid Test Failed," the internet, December, 2000.
٣ ـ **Ha'aretz**, December 12, 2000.
٤ ـ Reuters, January 22, 2001.

تعايش من دون استعمار

يقضيها في الخدمة الاجتماعيّة،» وغرّمه بضعَ آلافٍ من الدولارات. والدُ الصبيّ اتّهم المحكمة بإصدار «إذْنٍ بالقتل.»(١) ووصف صحافيٌّ أخلاقيٌّ الغرامةَ ببلاغةٍ، فقالَ إنّها «أسعار تصفية بسبب نهاية الموسم» على أرواح الأطفال الفلسطينيّين، مشيرًا إلى اكتشافاتِ منظّمةٍ من منظّمات حقوق الإنسان وَثّقتْ عشراتٍ من الحالات الشبيهة بُرِّئَ فيها المجرمون أو تلقّوا حُكْمًا طفيفًا.(٢) والحقّ أنّ على الحُكْم الأخلاقيّ أن يكون واضحًا، بغضّ النظر عن هويّة المجرم، أو هويّةِ «القضاة،» أو هويّةِ الصحافيّ الأخلاقيّ، أو هويّةِ المنظّمة المعنيّة بحقوق الإنسان، أو هويّةِ ذلك الشكل الصغير الضئيل من الحياة الذي كان ذاتَ يوم معلّقًا بذلك الرأس والعمود الفقريّ المكسورَيْن؛ ولكنّ هويّات المجرم والقضاة والصحافيّ والمنظّمة الإنسانيّة (إنْ كان ذلك يهمّ أصلاً) هويّةٌ يهوديّةٌ إسرائيليّةٌ، في حين أنّ الصبيّ فلسطينيٌّ من الخليل، عمرُه ١١ عامًا، وكان اسمهُ حلمي شوشة.

كما وثّقتْ عدّةُ منظّماتٍ لحقوق الإنسان، ومن بينها منظّمةُ «أطبّاء من أجل حقوق الإنسان» الواقعةُ في بوسطن، نَسَقًا كاملاً من القنّاصة الإسرائيليّين الذين يَستهدفون عيُونَ الأطفال الفلسطينيّين أو رُكَبَهُم، وبـ «نيّةٍ واضحةٍ في الأذى.» وقد كتبتْ تينا رينهارت: «هناك ممارسة شائعة، وهي إطلاقُ رصاصة معدنيّة مكسوّةٍ بالمطّاط على العيون مباشرةً ـ وتلك لعبة صغيرة يؤدّيها جنودٌ حسنو التدريب، وتقتضي دقّةً قصوى.»(٣) إنّ بمقدور هؤلاء القنّاصة أن يروا تلك العيونَ وحدَها، «عيونَ النَّسْر،» من دون الوجه، ومن دون الشخص، أيْ من دون الطفل القابع خلف هذه العيون؛ وبمقدورهم أن «يقتلعوها» بـ «احتراف.» وهناك صحافيٌّ من مجلة **نيويورك تايمز** قضى أسبوعَيْن يراقب «الاشتباكات» عند «نقطة متفجِّرة» في غزّة بين الأطفال الفلسطينيّين المزوَّدين بالحجارة والنقّافات، والجيش الإسرائيليّ المسلَّح بالدبابات و«الآلات البالغةِ الدقّة،» فكتب يقول: «طوال الوقت الذي قضيتُه في كارني لم يبدُ أنّ ثمّة جنديّاً إسرائيليّاً واحدًا تعرَّض لخطر الموت. بل ولم يُجرحْ جنديٌّ إسرائيليٌّ أو مستوطنٌ واحد. ولكنْ في تلك الفترة، قُتِلَ ١١ [طفلاً] فلسطينيّاً على الأقلّ في أوقات النهار...»(٤) بسبب الذخيرة الإسرائيليّة الحيّة.

إنّ ما يُثير الفلسطينيّين في ما يجري أعلاه لا يَقْتصر على الوحشيّة البالغةِ المستخدَمَةِ ضدّهم، بل يتعدّاها إلى الذكريات المؤلمة التي تؤجِّجها. أوردتْ جريدةُ **دافار** الإسرائيليّة أنّ محاربًا يهوديّاً قديمًا قاتَلَ في الغزو الصهيونيّ لفلسطين عام ١٩٤٨ وصَفَ جانبًا مزعجًا جداً لمجزرةٍ حدثتْ ذلك العام في قرية الدَّوايمة الفلسطينيّة، على يد كتيبة الكوماندوس الإسرائيليّة رقم ٨٩ أثناء «الهجوم على النقب.» فقال: «لقَتْلِ الأطفال قام [الجنودُ اليهودُ] بكسر رؤوسهم بالعصيّ. ولم يكن ثمّة منزلٌ واحدٌ من دون جثث.»(٥) ويوافق المحقِّقُ البريطانيُّ الأوّلُ في مذبحة أخرى، هي مذبحة دير ياسين، على غَلَبَة مثل هذه الممارسات، فيوثِّق أنّ «عدّة أطفال قد ذُبِحُوا كذلك.» ولهذا يجب النظرُ إلى إطلاق النار طوال ٤٥ دقيقة على محمد الدرّة البالغ من العمر ١٢ سنة ضمن هذا السياق، بما يطابقُ القاعدةَ، لا بوصفه استثناءً حزينًا منها.

١ ـ Phil Reeves, "Fury as Court Frees Settler," **The Independent**, January 22, 2001.
٢ ـ Gideon Levy, **Ha'aretz**, January 28, 2001
٣ ـ Tanya Reinhart, "Don't Say You Didn't Know," Indymedia, November 2000.
٤ ـ Michael Finkel, "Playing War," **New York Times Magazine**, December 23, 2000.
٥ ـ **Davar**, September 6, 1979, quoted in: Michel Palumbo, **The Palestinian Catastrope** (London: Quartet Books,) p. xii.

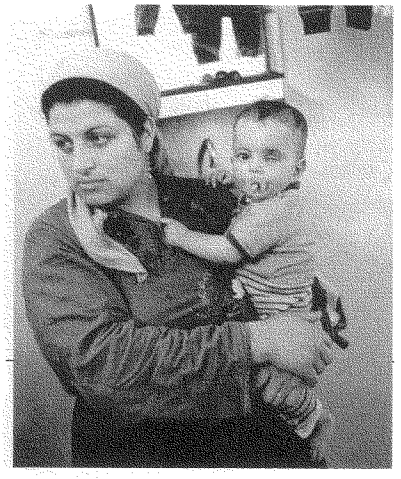

«هناك ممارسة شائعة وهي إطلاق رصاصة معدنيّة مكسوّة بالمطّاط على العيون مباشرة» (تانيا رينهارت)

وأورد جيدعون ليفي أيضًا، وهو صحافيّ إسرائيليّ يتميّز بأخلاقيّته واحترافه، تقريرًا في **هاآرتز** عن شكلٍ آخر من القتل البطيء: وهو الحصار. فـ «إلاّ،» وهي بنتٌ في العاشرة من قرية السّاوية قرب نابلس، قاست أوجاعًا مبرِّحة في بطنها، الأمرُ الذي أَجْبَرَ والدَها على محاولة اختراق الحصار العسكريّ الإسرائيليّ المضروب بشدّة حول قريتهما عدّة مرّات متتابعةٍ أثناء الليل، دونما جدوى، من أجل أخذها إلى أقرب مستشفى في نابلس. غير أنّ الحصار العديمَ الرحمةِ أَغْلَق كلّ الطرق المؤدّية خارج القرية. وفي الصباح ماتت «إلاّ» نتيجةً لـ «انفجار الزائدة» كما كُشِف لاحقًا.[١]

لقد كان بياليك مُحِقّاً في وصفه!

أمّا بعيدًا عن عالم الأطفال فلم يكن سجلُّ إسرائيل الأخلاقيّ أقلّ صعقًا على الإطلاق: فالإعدامات من خارج النظام القضائيّ (وقد «شُرِّعتْ» الآن بفضل النائب الإسرائيليّ العامّ،[٢] وشُرِّعتْ مؤخّرًا كسياسة إسرائيليّة رسميّة بما يشكّل انتهاكًا فظّاً للقانون الدوليّ)، وإطلاقُ النار على المعتقلين العُزّل المقيّدي الأيدي،[٣] ومنعُ سيّارات الإسعاف طوال ساعات من إنقاذ حياة الجرحى،[٤] وقتلُ المارّة الأبرياء نتيجةً لـ «الإرهاق الناجم عن الحرب،» و«أخذُ <الجنود الإسرائيليّين> صُوَرًا تَجْمعهم بضحاياهم [الفلسطينيّين المضروبين بشدّة] بعد أن يَحْمِلوا رؤوسَهم من شعورهم كغنائم الصيد،»[٥] قد كانت كلُّها «مشاهدَ» في ريپرتروار الموت المروِّع هذا. وثمّة مشهدٌ بارزٌ وَرَدَ وصفُه في رسالة إلى **هاآرتز**،[٦] كتبها ضابطٌ سابقٌ في الجيش الإسرائيليّ، فقال: «صُعِقتُ لرؤية جنود [إسرائيليّين] يَجُرُّون شابّاً فلسطينيّاً مدمّى في شوارع الخليل. لقد أَظْهرتْ هذه الصورةُ الصادمةُ جنودَنا أناسًا ساديّين يَبْتهجون لقتل شابٍّ، ولجرِّ جسدِه إلى المستوطنين لكي يَبْتهجوا هم أيضًا ولكيْ يَرْقصوا ويتبادلوا الحلوى والتهاني ولِيَرْفسوا الجسدَ الذي لم يَمُتْ بعدُ.» وبمناسبة ذكر التهاني، فإنّ الزعيم الصهيونيّ مناحيم بيغن ـ بُعيْد إذاعة أنباء مجزرة دير ياسين عام ١٩٤٨، حيث قُتل ٢٥٠ مدنيّاً فلسطينيّاً على يد منظمتَيْ إرغون وشتيرن الإرهابيّتَيْن ـ أَرْسل رسالةً سريعةً إلى المهاجِمين يقول فيها: «تقبّلوا التهاني على هذا النصر الرائع. أَخْبِروا الجنودَ أنّكم صنعتم التاريخَ في إسرائيل.»[٧] وبالعودة إلى الضابط الإسرائيليّ السابق الذي يَمْلك وازعًا من ضمير، فإنّه يواصل حديثَه قائلاً: «إنّ ذلك يذكّرني بالفهود الشيتا والضِّباع، التي تَقْتل فريستَها ثم تجرُّها. ولكنّ المشكلة هي أنّ هذه الحيوانات تَقْتل لتعيش، في حين أنّ جنودنا يَقْتلون ليحافِظوا على الاحتلال الذي هو نظامُ فصل عنصريّ [أپارتايد].»

غير أنّ مثلَ هذه الأقوال، المعبِّرةِ عن غضبٍ أخلاقيٍّ شَعَرَ به بعضُ الإسرائيليّين، قلّما جُهِرَ بها أثناء الانتفاضة، ويا للأسف. فقلّةٌ قليلةٌ من الإسرائيليّين جَهَرَتْ علنًا باعتراضها الأصيل على لاأخلاقيّة أعمال القتل. ومن جهة ثانية كان ممثّلو «اليسار» السياسيّ الإسرائيليّ معنيّين في الدرجة الأولى بالآثار السلبيّة التي قد تَجْلبها إذاعةُ مثل هذه الأعمال على الصورة الإسرائيليّة في الخارج!

١ ـ Gideon Levy, **Ha'aretz**, January 7, 2001.
٢ ـ **Ha'aretz**, February 1, 2001.
٣ ـ **Ha'aretz**, January 8, 2001.
٤ ـ Mary Robinson, **Report of the UN High Commissioner on Human Rights**, November 2000.
٥ ـ Lee Hockstader, **Washington Post & San Francisco Chronicle**, September 19, 2000.
٦ ـ **Ha'aretz**, January 17, 2001.
٧ ـ Jabotinsky Archives, quoted in Palumbo, p. 55.

تعايش من دون استعمار

تلك كانت بعضَ «المشاهد،» من بين مشاهد كثيرة أخرى، استَحْضرت أحداثَ عام ١٩٤٨ في أذهان أولئك الفلسطينيّين الذين مازالوا يتذكّرونها. فلقد كان الاستعماريُّون يَعْرضون أمام أعين هؤلاء الفلسطينيّين بعضًا من الثيمات اللاأخلاقيّة ذاتها، وكأنّهم يَرْضحون لهتافاتٍ تُصرّ على إعادة العرض يُطْلقها جمهورٌ إسرائيليٌّ مُهَلِّلٌ... أو يُطْلقها جمهورٌ لامبالٍ إلى حدٍّ كبير، هو الذي يُهلِّلُ في سرِّه. أمّا بالنسبة إلى من كانوا أصغرَ سنّاً من أن يتذكّروا ما جرى عام ١٩٤٨، فقد كانت الممارساتُ الإسرائيليّة الحاليّة والقناعاتُ الإيديولوجيّة التي استندت إليها تلك الممارسةُ درسًا مكثّفًا في التاريخ والسياسة والأخلاق. وفي الختام احتلّ الاستعمارُ الأصليُّ عام ١٩٤٨ قلبَ المسرح، مُلْهِمًا خطابًا جديدًا تمامًا.

٢ ـ المواطنون الفلسطينيُّون في إسرائيل ‹مناطق ٤٨›: الانعتاق الذاتيّ في مواجهة «السَّواء»

لاحظَ فرانتز فانون، ببصيرته الثاقبة:

«أنّ الاستعمار لا يَكْتفي بِبَسْط سلطته على حاضرِ البلد المحتلّ ومستقبله. إنّ الاستعمار لا يرضى بمجرّد إحكام قبضته على شعبٍ ما، وإفراغ عقلِ المواطن الأصلانيّ من كل شكلٍ ومضمون. بل إنّه، وبمنطقٍ منحرفٍ، يلتفت إلى **ماضي** الشعب المقموع، فيشوّهه ويحرّفه ويدمّره...»[١]

على الرُّغم من أنّ كلمة «استعمار» لم تُذكر أبدًا تقريبًا في سياق الحديث عن حكم إسرائيل لحدود «ها» قبل حرب عام ١٩٦٧، فإنّ الانتفاضة الثانية قدّمتْ لأفراد الأقليّة الفلسطينيّة الذين قُمِعوا زمنًا طويلاً في إسرائيل فرصةً للتطهُّر الشعوريّ، ودربًا حقيقيّاً لتحرير ذاكرتهم الجمْعيّة المغلولة وعقولهم المستعمَرة، حتى مِنْ قَبْلِ أن يتصدّوا لفكّ قيودهم الأكثرَ محسوسيّةً. فالحال أنّ كوابتهم الشاملة، التي حَرَمَتْهم أكبرَ حقّ أساسيٍّ وهو تسميةُ وضعهم باسْمه الحقيقيّ، كانت في السابق من التقييد بحيث صَعُبَ تحدّيها. لقد عجز الفلسطينيُّون في إسرائيل طوال ٥٢ عامًا عن مجرّد التعبير عن حقيقةِ أنّهم هم **أيضًا** كانوا تحت حكمٍ استيطانيٍّ كولونياليٍّ، وإنْ في مرحلةٍ أبكر، مع ما يَحْمله هذا الحُكْمُ من خصائص معروفة: من إذلال، وحرمانٍ متواصل، واستعبادٍ اقتصاديّ، وتهميشٍ سياسيّ، وإنكارٍ لروايتهم التاريخيّة، بل وإنكارٍ وإنْ لوميضٍ ضئيلٍ من الأمل في حياةٍ خاليةٍ من العنصريّة ومن السِّياط الكولونياليّة الحديثة. ولم يُسْمح لهم بأن يعيدوا وَصْلَ أجزاء تاريخهم أو أن يَرْتقوا هويّتَهم الممزّقةَ لكي تعود واحدةً سليمةً من جديد.

كان واحدًا من أكثر السياط فعّاليةً في مخزون المستعمِرين، ومايزال، هو فرضُ تصوُّرهم عن المستعمَرين على عقول أبناء البلد المُخْضَعين. فمن منظور كولونياليّ، كما يقول فانون، «يُعلَن أنّ ابن البلد عديمُ الإحساس بالقيم الأخلاقيّة؛ إنّه لا يمثّل غيابَ القيم فحسب بل إنكار القيم أيضًا... إنّه الشرّ المطلق.»[٢] وبعد أن استَبْطن مواطنو إسرائيل الفلسطينيُّون الكابحَ الأقسى ذاك أَقْنعوا أنفسَهم بأنّ تَوْقهم إلى الحريّة أمرٌ لاأخلاقيٌّ أساسًا، فضلاً عن كونه «حالمًا.» غير أنّهم، من خلال فِعْلهم التأمُّليّ، أو ما يسميه باولو فريري «البراكسيس» Praxis، توصّلوا إلى إدراك إمكانيّة أن

١ - Frantz Fanon, **The Wretched of the Earth** (MacGibbon & Kee, 1965), p. 170.

٢ - Ibid, p. 43.

دُهش أكثرُ الإسرائيليِّين لانتفاضة فلسطينيي ٤٨ الذين «تجاهلوا امتيازاتهم»

يناضلوا من أجل انعتاقهم من دون أن يَخْسروا أخلاقيَّتَهم؛ لقد أَدْركوا أنْ ليس ثمّة تناقضٌ أساسيٌّ بين الأَمْرَيْن، وأنَّهم ليسوا أبدًا مُلْزَمين أخلاقيّاً بالحفاظ على نظامٍ يَقْمعهم ولا مُلزَمينَ بتشريعه. يقول جان پول سارتر «إنَّنا لا نصير ما نحن عليه إلاَّ بالرفض الجذريّ والراسخ لما جَعَلَنا الآخرون نَكُونُه.»[١] ولهذا فإنَّ توقُّعَ قبول الفلسطينيِّين عبوديَّتَهم إنَّما هو في أفضل الأحوال مفهومٌ يعاني عيوبًا منطقيَّةً وأخلاقيَّةً، كما أنَّه في أسوإ الأحوال موقفٌ كلبيٌّ وخادعٌ واستعماريٌّ يَسْتلزم المجابهةَ. يقول جان جاك روسّو: «إنَّ الرجل الأقوى ليس دائمًا من القوَّة بحيث يبقى سيِّدًا كلَّ الوقت، إلاَّ إذا حوَّلَ قوَّته حقّاً وطاعَتَهُ واجبًا... القوَّةُ ماديَّة؛ ولا أرى كيف تُنتِجُ آثارُها أخلاقًا. إنَّ الاستسلام للقوَّة عملٌ ناجمٌ عن الحاجة، لا عن الإرادة؛ إنَّه في أحسن الأحوال عملٌ من أعمال الحِكْمة. ولكنْ كيف يمكن أن يكون واجبًا أخلاقيّاً؟»[٢]

لقد أَفْصحت الانتفاضةُ الثانيةُ عن تلك الاحتقانات والتطلُّعات التي كُبِتتْ زمنًا طويلاً، فأتاحت لها الانصبابَ سيلاً عرمرمًا من الطاقة التحويليَّة. وإذْ دُهِشَ أكثرُ الإسرائيليِّين للانتفاضة القادمة «من الداخل» عبَّروا عن عدم تصديقهم، بل عن صَدْمتهم، لما رأوه؛ وهذا ما كان متوقَّعًا منهم بالنظر إلى إنكارهم الطويل «لمشكلتهم الفلسطينيَّة الأخرى،» بتعبير **نيويورك تايمز**، وإلى افتراضهم المسبَّق الساذج أنَّ الفلسطينيِّين في إسرائيل قد ارتضَوْا أن يبقوا العبيدَ الأبديِّين الجددَ للدولة اليهوديَّة. وقد بَلَغَ ذلك الإنكارُ ذروتَه أثناء الانتفاضة. فقد عكستْ وسائلُ الإعلام الإسرائيليَّة شعورًا طاغيًا بالخيْبة، إنْ لم يكن بالخديعة، من أعمال «الإسرائيليِّين العرب» التي «لا يُمْكن أن تُفسَّر» نظرًا لأنَّ هؤلاء «تجاهلوا كلَّ امتيازاتهم» في إسرائيل وخَرَجوا إلى الشوارع بقوَّة ليعبِّروا عن دعمهم المتَّقِد للفلسطينيِّين في الضفَّة وغزة! وذهبتْ بعضُ وسائل الإعلام إلى حدِّ اتِّهامهم بانتهاج سياسات «الطابور الخامس.» فاتُّخِذتْ تدابيرُ «احترازيَّة» عسكريَّة قرب البلدات العربيَّة، وذلك بعد أن سمَّى تقريرٌ أمنيٌّ صادرٌ عن أرفع المستويات سكّانَ تلك البلدات «جماهيرَ معاديةً»[٣] تهدِّد «الأمنَ اليهوديّ.» وفي زلَّةِ لسانٍ واضحة عبَّر الرئيسُ الإسرائيليُّ موشيه كاتساف عن عرفانه لكون «أعمال الشَّغَب قرَّبت الإسرائيليِّين بعضَهم من بعض،» متناسيًا أنَّ خُمْسَ المواطنين <أي «عرب إسرائيل»> كانوا يتلقَّوْن الرصاصَ الحيَّ والملامةَ والدعاياتِ المبغِضة.[٤] ويُمْكن اعتبارُ تلك الاتِّهامات الموجَّهة إلى العرب نتيجةً طبيعيَّةً لإدراك الإسرائيليِّين اليهود المضطرب لـ «الإسرائيليِّين العرب،» ونتيجةً طبيعيَّةً ـ من ثم ـ لتوقُّعاتهم المضطربةِ من هؤلاء. بل إنَّ «اليسار الصهيونيّ» نفسَه، كما يحاجج عضوُ الكنيست د. عزمي بشارة، «يؤْمن أنَّه يَمْلك الصورةَ الصحيحةَ عن العرب ثم يفاجأُ حين لا يرقى العربُ إليها!»[٥]

قُمعتْ مظاهراتُ المواطنين العرب بقسوةٍ بالغة، فاستُخدِمت الذخيرةُ الحيَّة ووسائلُ قتاليَّةٌ مميتةٌ أخرى، «بهدف القتل أو الإصابة،» على نحوِ ما كَشَفتْ تقاريرُ منظَّمة العفو الدوليَّة. وقد تقبَّل معظمُ الإسرائيليِّين، كما أثْبَتَت استطلاعاتُ الرأي العام، خطَّ التفكير الإسرائيليّ الرسميّ الزاعم أنَّ الحكومة تصرَّفتْ «دفاعًا عن النفس،

١ ـ Jean-Paul Sartre, "Introduction to **The Wretched of the Earth**," ibid, p. 14.
٢ ـ Jean-Jacques Rousseau, **The Social Contract** (London: Penguin, 1968), p. 52.
٣ ـ Mazal Mualem, **Ha'aretz**, November 1, 2000.
٤ ـ **Ha'aretz**, October 5, 2000.
٥ ـ Azmi Bishara, "A Double Responsibility," **Middle East Report** 217, Winter 2000.

وانتقامًا للعنف الذي بدأه العرب.» غير أنّ مفهوم «الثأر» الإسرائيليّ الخاصّ هذا يَعْكس ما أُسمّيه رؤيةً فوتوغرافيّة فوريّة snapshot vision، وهي رؤيةٌ تجمّد الواقعَ زمنًا ومكانًا، وتَعْزله عن سياقه العامّ، ثم تُبْرزه على هذه الصورة وكأنّه الحقيقةُ ولا شيءَ إلاّها. فالحقّ أنّه لو استَعْبد زَيْدٌ عَمْرًا سنواتٍ طويلةً، فتمرّد عَمْرو ذاتَ لحظةٍ بشكلٍ فجائيّ، فليس على زيدٍ أن يدّعي أنّ عَمْرًا هو البادئ. لقد بدأتْ سيرورةُ الأحداث قَبْلَ تمرُّد عَمْرٍو بزمنٍ طويل. إنّ العنفَ المتأصّل في سيطرة زيد هو تحديدًا ما يتراكم في وعي عَمْرو، دافعًا إيّاه في النهاية إلى تحطيم القواعد القديمة. وقد شرح فريري هذا الفرقَ بين الاستهلال والردّ، معتبرًا أنّ عرقلةَ المرء عن «السعي إلى إثبات وجوده» هي في حدّ ذاتها استهلالٌ للعنف لأنّها «تتعارض مع رسالة المرء الأنطولوجيّة والتاريخيّة في أن يكون إنسانًا كاملاً.» وهو يَسْتنتج أنّ العنف يُسْتَهلّ بمجرّد حلول الوقت الذي تُولد فيه علاقاتُ القمع، فلا يُمْكن ـ والحالُ هذه ـ عدُّ أيّ عنفٍ مضادّ من طَرَفِ المقموع استهلالاً للعنف. ويَذْهب فريري إلى حدّ الإعلان التالي: «العنفُ لم يُستهلّ يومًا في التاريخ على يد المقموعين. وكيف يكونون هم البادئين إذا كانوا هم حصيلةَ العنف؟ كيف يكونون هم رُعاةَ شيءٍ يسبّب استهلالُهُ الموضوعيُّ وجودَهم مقموعين؟»[1]

بيْدَ أنّ محاولة تسويغ الردّ الإسرائيليّ الدامي تُغيِّر بشكلٍ هائلٍ من نظرة الغالبيّة اليهوديّة إلى الفلسطينيّين الأصلانيّين. فقلّةٌ قليلةٌ من الإسرائيليّين اليهود استطاعوا أن يميّزوا الأمور من وراء هذا الضباب الكثيف، وأن يُقِرُّوا بتغيُّر طبيعة هذه المجموعة القوميّة؛ وكان جدعون ليفي واحدًا من تلك القلّة القليلة. فقد كَتَبَ في **هاآرتز**:

«إنّ المجتمع العربيّ في إسرائيل يَشْهد جيشانًا، ويَشْهَد ممثّلوه في البرلمان الإسرائيليّ جيشانًا موازيًا. وبدلاً من مجتمعٍ خاضعٍ منبطحٍ يَرْفع في عيد الاستقلال ‹عيدِ الاحتفال بتأسيس إسرائيل› عَلميْن إسرائيليّيْن لا علمًا واحدًا فقط، على نحوِ ما لاحظ الكاتبُ والناشطُ الراحلُ إميل حبيبي بسخريةٍ لاذعةٍ، ينبثق اليومَ مجتمعٌ آخرُ فخورٌ ومناضل.»[2]

وهناك محاولة جديّة أخرى لفهم هذا التغيُّر «المفاجئ» وتمثّلتْ في تقريرٍ بحثيّ أجراه فريقٌ صريحٌ في رفضه الامتثالَ ‹للرأي الإسرائيليّ السائد›، مؤلّفٍ من ٢٦ أكاديميّاً من اليهود والعرب معًا. وقد عُرِض التقريرُ أمام باراك على أثر اندلاع الانتفاضة الثانية، فطالب الحكومةَ بتبنّي إجراءاتٍ شاملةٍ وعميقةٍ لتقويم الظلم اللاحق بالمواطنين الفلسطينيّين، وذلك بهدف إصلاح التفكّك الخطير في علاقة الدولة بهم. يقول التقرير:

«إنّ دولة إسرائيل، بمؤسّساتها وقيمها، تعبّر تعبيرًا حسنًا عن المصالح الوطنيّة والمشاعر الثقافيّة للغالبية اليهوديّة. وتبعًا لذلك فإنّ تخوم إسرائيل المدنيّة مطابقةٌ في الحقيقة لتخوم القوميّة اليهوديّة، كما أنّ الحقوقَ الممنوحةَ للمواطنين اليهود في إسرائيل أعظمُ كَمّاً وأهميةً من تلك الممنوحة لمواطني إسرائيل العرب. إنّ الدولة الإسرائيليّة مبنيّةٌ حول لبّ الذاكرة التاريخيّة اليهوديّة التي تشدّد على تراث النفي والهولوكوست ‹المذابح النازيّة بحق اليهود› والانبعاث، في حين أنّ قيمها الأساسيّة ومؤسّساتها تقدّس عالمَ المفاهيم المتّصلة بتلك الذاكرة وحدها.»[3]

١ ـ Paulo Freire, **Pedagogy of the Oppressed**, Trans. by Ramos (New York: Herder & Herder, 1972), p. 40.
٢ ـ **Ha'aretz**, November 12, 2000.
٣ ـ **Ha'aretz**, November 27, December 6, 2000.

الأعمال اللاأخلاقيّة لا تصبح أقل لاأخلاقيّة بمرور الزمن: أطفال يعيدون تمثيل نكبة ١٩٤٨

وإذ يقرّ التقريرُ بالهويّة **الفلسطينيّة** «الإثنيّة ـ القوميّة» لمواطني إسرائيل العرب، يدعو إلى الاعتراف بحصول «النكبة» وإلى الاعتذار عنها. ويَقْترح أنّ إقرارًا رسميّاً بهذه الحادثة الحاسمة هو وحده ما قد يُرسي دعائمَ تسوية مستقبليّةٍ وتعايشٍ حقيقيّ. ويقول إنّ السبب في ربط الأمريْن هو أنّه بعد حرب ١٩٤٨ «وجد المواطنون العربُ أنفسهم رعايا دولةٍ فُرِضتْ عليهم ولا تمثّل رؤيتَهم السياسيّة، بل بُنيتْ في حقيقة الأمر على أنقاضهم.»

غير أنّه لا يُمْكن في أيّ شكلٍ تصوُّرُ ما هو أكثرُ تمييزيّةً واستبعاديّةً وقمعًا بحقّ الفلسطينيّين أبناءِ البلد من **يهوديّة** الدولة الإقصائيّة. وليست ثمّة أيُّ درجة من يهوديّة الدولة يُمْكن يومًا أن تُلزِمَ هؤلاء الفلسطينيّين أخلاقيّاً، لأنّ ذلك يعني أساسًا إذعانَهم لحصيلة المرحلة **الأولى** من الاستعمار الصهيونيّ لأرضهم. إنّ الأعمال اللاأخلاقيّة لا تصبح أقلّ لاأخلاقيّةً بمرور الزمن؛ قد تُنْسى فترةً ما، ولكنّها لا تُغْفَرُ قطّ. بل الحقّ أنّ التجربةَ المعذِّبةَ والمُقِضّةَ المتمثِّلة في التطهير العرقيّ الأول عام ١٩٤٨ تتدفّق اليومَ ـ مع الانتفاضة الثانية ومع انبعاث حقّ عودة جميع اللاجئين الفلسطينيّين ـ إلى واجهة الذاكرة الفلسطينيّة الجمعيّة في إسرائيل وفي كلّ مكانٍ آخر. ذلك أنّ قضية اللاجئين قد كانت ولاتزال، في نهاية المطاف، في قلب قضيّة فلسطين وروحها.

٣ ـ حقّ العودة: الاختبار الأساسيّ للأخلاقيّة

في خصوص مسألة «الصفاء العِرْقيّ» والكراهية الشوفينيّة للآخر، أظْهر السياسيُّون الإسرائيليُّون والمثقّفون الذين يدّعون أنّهم من أهل اليسار أنّ أحزاب اليمين المتطرّف في أوروبا تبدو بَعْدَ المقارنة بهم أشبهَ بالأم تيريزا حُبّاً لبني البشر! غير أنّ الفارق الحاسم هو أنّ اللاأخلاقيّة في حالة إسرائيل أكثرُ تفاقمًا لأنّ «الآخرين» هنا ـ خلافًا للمهاجرين الأجانب في أوروبا ـ هم في الحقيقة أبناءُ الأرض الأصليُّون، الذين طُردوا منها ويتوقون للعودة إليها. والمعادِلُ الأحدث لأزمة اللاجئين الفلسطينيّين هو ما حصل من معاناةٍ للكوسوڤيّين، الذين طُردوا من قراهم وبلداتهم ثم عادوا لاحقًا بعد حرب وجيزة ولكنْ «مظفَّرةٍ» خاضها حلفُ الناتو ضدّ معذِّبيهم. يَكْتب جدعون ليڤي، عاقدًا الصلةَ بين الأزمتَيْن ببصيرة نفّاذة:

«بعيد عن العين، بعيدٌ عن القلب: الصُّوَر من كوسوڤو تُنقل إلى الإسرائيليّين من بعيد. وحدَها ذكرى الهولوكوست هي ما يقرِّب هذه الصُّورَ إليهم، لِمَنْ يتذكّر بالفعل. غير أنّ كوسوڤو كانت هنا حقّاً، إنْ كان هناك مَنْ لا يتذكّر؛ وقد تَحْدث كوسوڤو هنا فعلاً، إنْ كان هناك مَنْ لا يَعْنيه الأمرُ... فبين كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ وأيلول (سبتمبر) ١٩٤٩، هَرَب أو طُرِد ما بين ٦٠٠ ألف إلى ٧٦٠ ألفًا من العرب الفلسطينيّين من بيوتهم، فتحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى لاجئين. لقد تَحَطّم العالمُ فوق رؤوسهم، ولم يُشْفُوا <من مأساتهم> بعدُ.»[١]

ويصف محمود درويش تجربةً أكثرَ ذاتيّةً، هي تجربةُ المنفى القاسي في لبنان والانتظارِ الطويل من أجل العودة، فيقول إنّ جدّه مات يَعدُّ النجومَ والفصولَ ودقّاتِ القلب على أصابع يديه الذابلتَيْن، وسَقَط كثمرةٍ حُرِمَتْ جذْعًا تُسْنِد عمرَها إليه؛ فلقد حطّموا قلبه.[٢]

إنّ حقّ العودة، الذي بات إنكارُهُ يُعرِّف لاسَويّةَ abnormality إسرائيل، هو ما يعتبره الفلسطينيُّون لبّ الصراع. وعليه فإنّ هذا، وحقيقةَ أنّ حقّ العودة يلخِّص بحدّةٍ مأساةَ شعب فلسطين بأسرها،

---

١ ـ **Ha'aretz**, November 12, 2000.

٢ ـ Mahmoud Darwish, Excerpts from "Memory for Forgetfulness," **Al-Ahram Weekly**, The Nakba Archive.

تعايش من دون استعمار

يجعلان من هذا الحقّ الامتحانَ الأخلاقيَّ الضروريَّ لكلّ مَنْ يقترح حلاً **أخلاقياً** للصراع. وكان أبرزَ الراسبين غير الإسرائيليِّين في هذا الامتحان هو الرئيس الأميركيّ السابق بيل كلينتون. ففي خطابه التاريخيّ الأخير أمام «منبر السياسة الإسرائيليَّة» ذكَّر الإسرائيليِّين أنّ أرضهم هي أيضًا أرضُ الفلسطينيِّين، لكنَّه رفض حقَّ عودة هؤلاء إلى ما بات يسمَّى إسرائيل، مصرّاً بدلاً من ذلك على أنّ «دولةً» فلسطينيَّةً في المستقبل هي ما يجب أن يَسْتوعِبَ اللاجئين، وإلاّ تضعضعتْ «أسسُ الدولة الإسرائيليَّة ذاتُها أو المبرِّرُ الكاملُ لخلق الدولة الفلسطينيَّة.»(١)

ولقد تمّ الإعلانُ الحقيقيُّ عن الانهيار الأخلاقيّ لكلّ أطياف اليسار الإسرائيليّ «الرسميّ» تقريبًا ما إنْ كشفتْ مواقفَها حيال حقّ الفلسطينيِّين في العودة. وهاكم عرضًا لبعض آراء اليسار المذكور، يُعزِّز هذا الجَزْمَ.

فبعضُ مَنْ يُعْلِنون أنفسَهم «ناشطين أساسيِّين في معسكر السلام الإسرائيليّ،» بمن فيهم شخصياتٌ مؤثِّرة مثل ا.ب. يهوشواع وعاموس عوز اللذَيْن صادقا كلاهما على باراك «مرشّحًا لمعسكر السلام،»(٢) ردَّدوا موقفَ باراك الرافضَ رفضًا مطلقًا لحقّ العودة في إعلاناتٍ كبرى نشروها في عدّة جرائد، وهي تقول: «لن يكون في وسعنا أن نَقْبل أبدًا عودةَ اللاجئين إلى داخل حدود إسرائيل <عامَ ١٩٤٨> لأنّ معنى مثل هذه العودة سيكون إلغاءَ دولة إسرائيل.» وكان وزيرُ الخارجيَّة الإسرائيليّ «الليبراليّ» شلومو بن عامي أكثرَ «إنصافًا؛» فقد أَقَرَّ بوجود شيء من العدالة في مطالبة الفلسطينيِّين بهذا الحقّ ولكنَّه سارع إلى إعطاء القيادة الفلسطينيَّة فرصةَ الخيار الرزين بين بديلَيْن: «العدالة أو السلام.»(٣) ذلك لأنّ البديليْن في سياق الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، من منظور بن عامي، يَسْتَبْعِد كلُّ واحدٍ منهما الآخر. كما سمَّى بيلين حقَّ العودة «خطّاً أحمر،» في حين سمَّاه يوسي ساريد «انتحارًا.»

أمّا يوري آڤنيري، وهو ناشطٌ قديمٌ من أجل السلام، فقد انتقد بحدَّةٍ موقفَ يهوشواع ـ عوز، وسَخِرَ من اقتراح بني موريس (المؤرِّخ الإسرائيليّ الرائد) القاضي بالسَّماح لـ «قطراتٍ» من اللاجئين بالعودة، مُعتبرًا ذلك متناقضًا تناقضًا صارخًا مع «دوره <أيْ موريس> الهامّ في كشف أمر طرد الفلسطينيِّين عام ١٩٤٨.» وبدلاً من ذلك يُقرّ آڤنيري بحقّ العودة «بوصفه لبَّ القيم الروحيَّة الوطنيَّة الفلسطينيَّة،» ولكنَّه يَعيب على باراك إثارةَ هذا الحق لأنَّه بعمله هذا «يَرْفس الأسدَ النائمَ في أضلاعه» بإصراره على أنْ تُوقِّع القيادةُ الفلسطينيَّةُ تعهُّدًا «بإنهاء الصراع.» ويقترح آڤنيري «حصَّةً سنويَّةً من ٥٠ ألف <فلسطينيّ> لمدَّة ١٠ أعوام،» غيرَ غافلٍ عن أنّ إسرائيل تَسْتَوعب ٥٠ ألف مهاجر يهوديّ كلَّ سنة؛ وهدفُ اقتراحه هو الحفاظُ على «الطبيعة اليهوديَّة» للدولة بما لا يهدِّد «الصورةَ الديموغرافيَّة.»(٤)

وثمَّة محاولةٌ أكثر تركيبًا عَرَضَها داني رابينوڤيتش، الذي اقترح «إسقاطَ أل التعريف» ومن ثمَّ الحديثَ لا عن «الحق في العودة» the right of return بل عن «حق في العودة» right of return، وذلك من أجل إزاحة هذا الحقّ عن التأويل «المتطرِّف!» المُقَرّ بِهِ

١ ـ Reuters, January 8, 2001.
٢ ـ A.B. Yehoshua & Amos Oz, "Support Barak Conditionally," **Ha'aretz**, December 19, 2000.
٣ ـ Barbara Demick, **Philadelphia Inquirer**, January 16, 2001.
٤ ـ Uri Avnery, "The Right of Return," Indymedia.

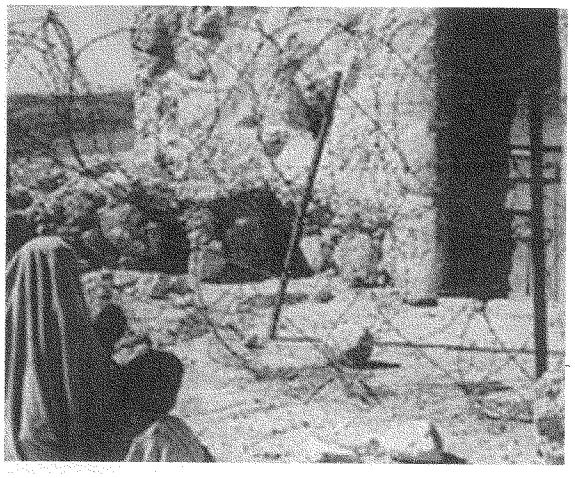

أنشئت إسرائيل على أنقاضِ فلسطين، والتعويض الوحيد هو إزالة الاستعمار

دُوَلِيّاً.[١] كما اقترح جيروم سيغال، وهو باحثٌ في جامعة ميريلاند، ضَبْطَ «نسبةِ اللاجئين العائدين» من أجل الحفاظ «على شخصيّة إسرائيل دولةً يهوديّةً.» وعَرَضَ سيغال ـ في ما قد يُذكِّر بالمواقف العِرْقيّة التي مضى أوانُها ـ التمييزَ بين اللاجئين الأكبر سنّاً والأحدثِ سنّاً، على اعتبار أنّ الأوّلَ «أقلُّ تهديدًا» لأنّهم أساسًا «تخطّوْا سنَّ الإنجاب!»[٢]

وعليه، فلمّا كانت الأطيافُ السياسيّةُ الإسرائيليّةُ بأسرها تلتقي على رفض حقّ اللاجئين الفلسطينيّين المقدّس في العودة إلى بيوتهم وقراهم وبلداتهم، فإنّ على أيّ حلّ «معتدل» قائمٍ على دولتَيْن فلسطينيّة وإسرائيليّة أن يتخلّى بالضرورة عن هذا الحقّ. وما إنكارُ هذه الحقيقة إلاّ مؤشّرٌ على تضليلٍ ذاتيّ ساذج أو على خداعٍ خبيث.

لقد أُنشِئَتْ إسرائيلُ دولةً استعماريّةً ـ استيطانيّةً على أنقاضِ ما كان فلسطين. والتعويضُ المنطقيُّ والشرعيُّ والأخلاقيُّ الوحيد الذي يجب أن يُعطى للسكّان الأصليّين، في هذه الحالة كما في كلّ حالةٍ استعماريّةٍ أخرى في العالم، إنّما يتجسّد في قاعدةٍ واحدةٍ هي: إزالة الاستعمار. ولكنْ في مواجهة هذا المفهوم الذي لا مفرّ منه يَقْترح أحفادُ المستعمِرين جميعَ أنواع المعادلات والتركيبات النظريّة والمتاهات الثقافويّة بهدف تغييرِ كيفيّة إدراك **السكّان الأصليّين** لواقعهم وبهدف إزالة «الحواجز النفسيّة،» بدلاً من أن يَعْملوا على تغيير هذا الواقع نفسه. فمصالح القامعين، بعد كل حساب، تقَعُ بشكلٍ ثابتٍ تقريبًا في «تغيير وعي المقموعين، لا في تغيير الواقع الذي يقمعهم.»[٣] بحسب سيمون دوبوفوار.

إزالة الاستعمار: فلسطين ـ إحياء الاسم والهوية

قال بن غوريون: «لماذا يَعْقد العربُ السلامَ؟ لو كنتُ قائدًا عربيّاً لما تصالحتُ أبدًا مع إسرائيل. وهذا أمرٌ طبيعيّ: فلقد أخذْنا بلادَهم. يقينًا أنّ اللّه وَعَدَنا بها، ولكنْ ماذا يهمّهم في ذلك؟ إنّه إلهنا وليس إلهَهم! بلدُنا أصلاً هو إسرائيل، وهذا صحيح، ولكنّ ذلك كان قبل ألفيْ عام، فلماذا يهمّهم هذا أيضًا؟ لقد كان ثمّة عداءٌ للساميّة، وكان هناك النازيُّون، وهتلر و«معسكراتُ الإبادة النازيّة في» أوشڤيتز، ولكنْ أكان ذلك خطأهُم؟ إنّهم «العرب» لا يرَوْن إلاّ شيئًا واحدًا: وهو أنّنا جئنا إلى هنا وَسَرَقْنا بلدَهم. فلماذا يكون عليهم أن يَقْبلوا ذلك؟»[٤]

حسنًا! حين يتحدّث مستعمِرٌ، وبتفضّلٍ فوقيٍّ، باسم السكّان الأصليّين، فإنّه كالعادة محكومٌ بتقديم بعض الافتراضات الخاطئة التي تستجيب للصورة التي يعطيها هو نفسُه عن الأصلانيّ ابنِ البلد. وأمّا نحن فلا نرى شيئًا واحدًا فحسب، **وينبغي** ألاّ نفعل هذا. ذلك أنّه إذا كان كلُّ ما نراه من الحضور اليهوديّ في فلسطين نفيًا لحقّنا المعنويّ في الأرض، فمعنى ذلك أنّنا لن نَمْتلك إلاّ نصفَ الحقيقة. وأمّا نصفُ الحقيقة الآخر فهو أنّ علينا أن نَنْظر إلى اليهود في فلسطين بوصفهم بشرًا، فوق كلّ اعتبارٍ آخر وبما يتجاوز كلّ اعتبار آخر، وإلاّ فلن «يُصفّيَ الحسابات» غيرُ الثأر. إنّ على الفلسطينيّين واجبًا أخلاقيّاً وهو التمييزُ بين «محو الخطإ،» كما يسمّيه هيغل، والثأر. فمحوُ الخطإ يَهْدف إلى أن يُبْطِلَ ما يَجْعل المستعْمِرَ مستعمِرًا، لا أن يمحو **الإنسانَ** الكامنَ خلفَ المستعمِرِ لكونِهِ مستعمِرًا. وأمّا الثأر

١ ـ Danny Rabinowitz, **Ha'aretz**, January 4, 2001.
٢ ـ **Ha'aretz**, February 1, 2001.
٣ ـ Simone de Beauvoir, quoted in Freire, p. 60.
٤ ـ David Ben-Gurion, quoted in Nathan Goldman, **The Jewish Paradox**, www.cactus48.com.

تعايش من دون استعمار

فيركّز أساسًا على التنفيس عن الغضب وعن الاحتقانِ والذلّ والحرمانِ التي كُبتَتْ زمنًا طويلاً، وهو ما قد يؤدّي إلى أعمالٍ لاأخلاقيّةٍ كما تَشْهد على ذلك حالاتٌ وافرةٌ من النزاع القوميّ أو الإثنيّ. إنّ الثأر «لَيَندرجُ في متواليةٍ لانهائيّةٍ، وينحدر من جيل إلى جيل إلى ما لانهاية،» كما يقول هيغل؛ في حين أنّ علينا من أجل محو الخطإ، أيْ إزالةِ الظلم اللاحق بنا، أن نُمَفْهِمَ مَطْلَبًا للعدالة «لا يتوقّف بعد الآن على القوّة» بل على مبادئ أخلاقيّةٍ تعمّ جميعَ بني البشر وتَدْعم القيمةَ العليا للإنسانيّة فوق كل اعتبار.(١)

إنّه لأعظمُ «إغراءً» أن يعوِّض شعبٌ عن عقودٍ من اللاأنسنة بأن يَقْلب الأمورَ، فينزلقَ إلى منطق «إطعامِ السُّمِّ طابخَه.» ولكنْ، كما أشرنا سابقًا، ليست هناك درجةٌ من الألَم أو الظلم يُمْكن أن تبرِّر أخلاقيًا معاملةَ «الآخر» كما تعامَلُ الضحيّةُ ودونما داعٍ، وإنْ كان هذا الآخرُ هو مَنْ سَبَقَ أن مارسَ القمعَ في زمنٍ ماضٍ. ومع الإقرار بأنّ الأمر في هذه الحال الأخيرة أصعبُ، فإنّ إنسانيّتنا الحقيقيّةَ وأخلاقيّتَنا الحقيقيّةَ إنّما توضعان هَهُنا تحديدًا موضعَ الامتحان. ذلك أنّ علينا أن نكون يقظين على الدوام لوجود خطٍّ دقيقٍ مقدّس بين **نَقْضِ** القمع الاستعماريّ من جهة أولى، و**قمع** القامعين السابقين دونما استحقاقٍ من جهة ثانية. وتجاوُزُ هذا الخطّ، أو الرسوبُ في الامتحان الأخلاقيّ، سيَحْكم على الفلسطينيّين بمستقبلٍ بغيض، وهو أن يُصْبحوا ما كانوا قد كرهوه وناضلوا ضدّه على الدوام: قامعين.

يقول فريري: «إنّ اللاأنْسنة، وهي فعلٌ لا يَسِمُ أولئك الذين سلَبُوا إنسانيّتَهم فحسبُ بل يَسِمُ أيضًا (وإنْ بطريقة مختلفة) أولئك الذين سلَبوها، إنّما هي تشويهٌ للرسالة الأخلاقيّة الداعية إلى أن يصير المرءُ إنسانًا كاملاً... إنّ النِّضال [من أجل الأنسنة] أمرٌ ممكن، لأنّ اللاأنسنة ـ على الرُّغم من كونها حقيقةً تاريخيّةً ملموسة ـ **ليست** قدرًا معطًى وإنّما هي نتيجةٌ لنظامٍ ظالمٍ unjust order يولِّد عنفًا في القامعين، فيقوم بدوره بسلب المقموعين إنسانيّتَهم... ولكي يكون لهذا النضال معنًى، فإنّه ينبغي على المقموعين وهم يَسْعَوْن إلى استرجاع إنسانيّتهم (الذي هو شكلٌ من أشكال خلقها) ألاّ يصبحوا بدورهم قامعين للقامعين، بل أن يعيدوا إلى الطرفَيْن إنسانيّتَهما.»(٢)

بعد هذا نشير بالتخصيص إلى نموذجَيْن للتحرُّر من الاستعمار هما: الجزائر وجنوبيّ أفريقيا. الأول نموذجٌ للحالة الكلاسيكيّة في طرد المحتلّ، في حين أنّ الثاني تجربةٌ جديدة صُمِّمتْ خصّيصًا لتتكيّف مع خصوصيّات التجربة الاستعماريّة الجنوبأفريقيّة. في النموذج الأخير أُلغي نظامُ التمييز العنصريّ (الأپارتايد)، ولكنّ السكّان البيض نَجَوْا بعد أن وافقوا على تفكيكه وعلى أن يصبحوا سواسيةً مع المواطنين الآخرين في ظلّ الدستور الديموقراطيّ الجديد. وأمّا حالة فلسطين فهي مثالٌ هامّ، وبخاصة نتيجةً لأوجه الشبه الكثيرة بين الصهيونيّة والأپارتايد، وبشكلٍ أخصّ لأنّه ليس ثمّة «فرنسا» يُرجَعُ إليها. إنّ طرد المستعمِرين ليس خيارًا أخلاقيًا في هذه الحالة.

هناك حلول متعدِّدة للأزمة يُمْكن أن تَنْجح في الامتحان الأخلاقيّ المذكور أعلاه، غير أنّ ما ينبغي أن تَشْترك فيه هو احتكامُها جميعِها لا إلى مبدإ القوّة بل إلى الواجب الأخلاقيّ والقانونِ الدوليّ والحقوقِ الإنسانيّة الكونيّة. ومن البيِّن أنّ «الدولة اليهوديّة» هي الإدامةُ الواضحة للنقيض: أيْ إدامةٌ للاستعمار، وللامساواة، وللقمع، وللحرمان. وواحد من البدائل التي قدّمها مثقفون يهود، منذ زمنٍ يعود إلى كتابات مارتن بوبر والحاخام ماغنس، وقدّمها مؤخّرًا مثقفون فلسطينيُّون كعزمي بشارة ثم إدوارد سعيد، هو دولةٌ ثنائيّةُ

١ ـ Hegel, **Philosophy of Right**, Trans. by Knox (Oxford University Press, 1973), p. 73.

٢ ـ Freire, p. 28.

الحلّ القائم على دولتيْن يشرِّع حصيلة المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيونيّ

القوميّة في فلسطين التاريخيّة. وهو بديلٌ يَسْتند إلى مبدإ «تقرير المصير للشعبين كليهما،»[١] بحسب عبارة إدوارد سعيد. والافتراض الضمنيّ هنا هو أنّ ثمّة مجموعةً قوميّةً أخرى مؤلّفةً من اليهود الإسرائيليّين يجب أن تمتلك في فلسطين حقّاً يساوي حقّ المجموعةِ القوميّةِ المؤلّفة من العرب الفلسطينيّين. ولكي يكون بمقدور مثل هذه الدولة أن تَشْتمل على القوميّتَيْن المذكورتَيْن معًا فإنّ عليها أن تكون ديموقراطيّةً تُعطي حقوقًا متساويةً لجميع مواطنيها؛ أيْ أن تكون ـ كما اقترح عزمي بشارة ـ «دولةً لجميع مواطنيها» بكلّ ما في هذه الكلمات من معنًى. وأمّا تحقيقُ حقّ العودة للاجئين الفلسطينيّين فهو متضمّن في هذا الحلّ أيضًا، بوصف ذلك الحقّ خطوةً ضروريّةً أُولى لمحو الظلم أو «الخطيئةِ الأصليّة.»

ولكنْ على الرُّغم من مزايا هذا الحلّ الأخلاقيّة فإنّه يمكن أن يواجَهَ بأمرَيْن محدَّدَيْن:

أ ـ أنّه يُشرِّع حصيلةَ المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيونيّ، أو هو يعترف بـ «شرعيّة الجنين» برغم كونه «ثمرةَ الخطيئة» كما يقول عزمي بشارة. إنّ الإشكال هنا ليس في وجود اليهود في فلسطين في حدّ ذاته، بوصفهم مواطنين متساوين في الحقوق أو بشرًا، بل في وجودهم القوميّ الذي هو حصيلةٌ مباشرة للماضي الاستعماريّ، وإدامةٌ للظلم، وهو من ثم أرضٌ خصبةٌ لإطالة القمع والصراع. ففي البلدانِ التي اندمج فيها المستوطنون بالسكّان الأصليّين ـ كما حصل في جنوبيّ أفريقيا وأميركا اللاتينيّة، وكما حصل في دول الكاريبي بشكل أكثر لفتًا للأنظار ـ لم يكن هناك شرطٌ مسبَق يقضي بقبولِ وتشريعِ «قوميّة» المستوطنين، لأنّ مثلَ هذا الشرط المسبَق لا يمكن تبريرُه فورًا. وعاموس عوز، مثلاً، يَعْتبر حقّ عودة الفلسطينيّين انتهاكًا غيرَ مقبول لـ «حق اليهود في تقرير مصيرهم.»[٢] فكيف يمكن التوفيقُ بين مفهوم للقوميّة كهذا، وهو مفهوم استعماريٌّ في أساسه، ومتطلّباتِ إزالةِ الاستعمار ومن ثمّ متطلّبات التعايش المستقبليّ والسلام الدائم والتنمية؟

إذن، في ما يخصّ الصهيونيّةَ تحديدًا، يُشرِّع هذا الاعترافُ جوهرًا استعماريًا؛ علاوةً على أنّه يؤدّي إلى افتراض حلٍّ للسجال القديم حول ما إذا كان بمقدور اليهود أن يُسْتَوْعَبُوا أم أنّ عليهم أن يُفْصَلوا عن الأغيار، مُؤْثِرًا الاقتراحَ الأخير.

ب ـ أنّه يَفْترض أنّ اليهود الإسرائيليّين يُعَرِّفون أنفسَهم بأنّهم أمّة. وهذا الافتراض، ببساطة، لا أساسَ له يَدْعمه. فعلى المستوى الأول تُمْكن المحاججةُ بأنّ ادّعاء المتاخمة المشتركة بين الدين والأرض relgion-territory co-terminality يعاني خللاً نظريّاً وعمليّاً، وذلك لأنّ «الدين لا يُمْكن أن يقدِّم أساسًا للهويّة القوميّة» بحسب ت.ك. أُومِنْ، وهو باحثٌ متميِّز في شؤون القوميّة، «لأنّ الشَّرْطيْن الأساسيَّيْن لتشكُّل الأمّة ـ وهما تحديدًا الأرضُ المشتركة واللُّغة المشتركة ـ ليسا مشتركَيْن بين أتباع المجموعة الدِّينيّة الواحدة...»[٣] وإلاّ لكان من حقّ المسلمين الأندونيسيّين والكاثوليك البرازيليّين أن يدّعوا حقَّهم في فلسطين مثل أيّ شخص كان.

ولكنْ حتى لو نحّيْنا هذه المسألةَ جانبًا فإنّ عزمي بشارة نفسَه يُقرّ بأنّ اليهود الإسرائيليّين «لا يعترفون ـ وإنْ مجرّد اعتراف ـ بقوميّتهم الإسرائيليّة نفسِها. إنّهم لا يعترفون بالهويّة القوميّة

١ ـ Edward Said, "The One State Solution," **New York Times Magazine**, January 10, 1999.
٢ ـ Amos Oz, "Let Palestinians Govern Palestinians Now," **The New York Times**, January 6, 2001.
٣ ـ T.K. Oommen, **Citizenship & National Identity**, Ed. Oommen (Sage publications, 1997), p. 169.

تعايش من دون استعمار

[الإسرائيليّة ـ اليهوديّة] التي أنتجوها... إنّهم لا يَعْترفون إلاّ بالأمّة اليهوديّة. فبالنسبة إليهم ليس ثمّة شيءٌ اسمُه 'الإسرائيليّة' <القوميّة الإسرائيليّة>.»[1]

◆ ◆ ◆

لعلّ اقتراحًا أكثر أخلاقيّةً هو أن نُمَفْهِمَ <أيْ نصوغ مفهومًا يمثِّل> **دولةً ديموقراطيّةً علمانيّةً** تُبنى في الوقت الذي تتواصل فيه عمليّةُ إزالة الاستعمار المطلوبةُ وفاءً للمبادئ الأخلاقيّة، بحيث تَنْشأ هويّةٌ عابرةٌ للقوميّات، أو ينشأ «خليطٌ للآفاق» حقيقيٌّ، كما يسمّيه غادامر، يوحِّد يهودَ فلسطين والسكّانَ الأصليّين، أي الفلسطينيّين (بعد أن يعاد وَصْلُ أجزائهم الثلاثة أولاً ويعاد تجذيرُها في موطنهم التاريخيّ)، بما لا يَسْمح باستبعاد أيّ فريق مسبقًا. ومن نافل القول إنّ على مثل هذه الهويّة الجديدة أن تتكيّف مع متطلّبات المنطقة بأسرها، ومع الحقوق العامّة لمواطنيها جميعهم. وواضحٌ أنّ هذه المسألة تحتاج إلى بحثٍ أشدّ تفصيلاً وهو ما يتجاوز حدودَ هذه المقالة.

لقد قال مناحيم بيغن ذات يوم:

«يا صديقي، احذرْ. إنِ اعترفتم بمفهوم 'فلسطين' دمَّرْتُمْ حقّكم في العيش في عين هاحورشْ. فإذا كانت هذه فلسطينَ لا أرضَ إسرائيل، فأنتم محتلُّون لا حارثون للأرض، وأنتم غزاة. وإذا كانت هذه فلسطينَ، فإنّها تنتمي إلى شعبٍ عاش هنا قبل أن تأتوا.»[2]

ولكنْ، تلك كانت فلسطين حقّاً، وليس ثمّة حائلٌ دون أن **تُعاد** تسميتُها فلسطينَ في المستقبل. ومع التسليم بأنّ ذلك يتطلّب عمليّةً شاملةً من إزالة الاستعمار ومن التحوُّلات الجديّة ـ وهذا لن يكون بالأمر السهل ـ فإنّه ينبغي ألاّ يُنظَرَ إليه بقلقٍ وخوف وكأنّه «تهديدٌ وجوديٌّ».. إلاّ أن يكون المقصودُ تهديدًا لوجود **الفكرة الاستعماريّة والممارسة الاستعماريّة**.

ربّما كان هذا هو الخيارَ الأخلاقيَّ الأوحدَ أمام الإسرائيليّين ليتبنّوْه، وهو أن يَعْترفوا بالولادة الدمويّة لدولتهم على أنقاضِ ما كان فلسطين، وبسيرورة هذه الدولة عبر الزمن وحشًا ضاريًا استعماريّاً وكائنًا طفيليّاً يقتات من دمٍ وعرقٍ وعذابِ المجتمع العربيّ الفلسطينيّ المقطَّع الأوصالِ والمستأصَلِ الجذورِ والمهجَّر والمستَعْبَد. فإذا اعترف الإسرائيليُّون بذلك فسينظرون إلى التحدّي الذي يواجِهُ وجودَهم الاستعماريَّ لا بوصفه «تهديدًا وجوديّاً» **لَهُم** وإنّما بوصفه دعوةً ميمونةً ونبيلةً إلى تفكيك **الطبيعة الاستعماريّة** لدولتهم، ودعوةً إلى أن يتمتّع اليهودُ في فلسطين أخيرًا بحالةِ سواءٍ حقيقيّةٍ وبضمائر نقيّةٍ وبحياةٍ أخلاقيّةٍ وبسلامٍ على الأرض، فيصيروا مواطنين متساوين في دولة علمانيّة ديموقراطيّة تكون أرضًا **واعدةً** حقّاً.

عمر بوغوثي

طالب دكتوراه فلسطيني في مادة الفلسفة في جامعة تل أبيب في فلسطين المحتلة. وهو أيضًا مدرِّب «فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية.»

١ ـ Azmi Bishara, "The Legitimacy of Resistance: Options for Palestinian Survival," CPAP, Washington, December 1998, p. 5-11.

٢ ـ Menachem Begin, quoted in Noam Chomsky, **Peace in the Middle East** (Pantheon, 1974), p. 21.